
ماهر البطوطي

الكتاب : الفتوحات الباريسية (رواية)

المؤلف : ماهر البطوطي

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٦

رقم الإيداع : ٢٣٥٤ / ٢٠١٦

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978-977-493-243-4

الناشر

شمس للنشر و الإعلام

٨٠٥٣ ش الجامعة الحديثة . الهضبة الوسطى. المقطم. القاهرة

ت فاكس ٢٧٢٢٣٨٠٠٤ (٠٢) / ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net



الفتوحات الباريسية

رواية

ماهر البطوطي

لو حالفك الحظ وكنت ممن عاشوا في باريس أيام شبابك ،

فهي ستبقى معك طوال حياتك أينما ذهبتَ ، فباريس عيدٌ متنقل

إرنست همنجواي

(١)

وحين قضى نوستراداموس نحبه، دُفن على نحوٍ طولي في كنيسة كولدليه بمنطقة "سالون". وأقامت له زوجته شاهدًا نُقش فيه:

(هنا ترقد عِظام ميشيل نوستراداموس العظيم، الذي شهد الجميع بأن قلمه شبه المقدس كان جديرًا بأن يسجل - بموجب دفقات الأنجم - أحداث المستقبل في العالم كله. لقد عاش ٦٢ عامًا وستة أشهر وسبعة عشر يومًا، وتوفي في "سالون" عام ١٥٦٦.. أيها الخَلَف، لا تزعجوا راحته العذبة ! إن آن بونس جيمل ترجو لزوجها السعادة الحقة).

بيد أن الراحة العذبة للمتنبئ قد أزعجت. ففي إبان الثورة الفرنسية، قام عدد من الجنود بكسر حائط الكنيسة كيما يروا قبره. وقيل بعد ذلك لإن الجنود ألقوا نظرة فاحصة على القبر داخل الجدار، ثم ولوا صارخين في ظلمة الليل، وكانوا على حق في ذلك، فقد قرأوا تاريخًا مكتوبًا على القبر... وذلك التاريخ هو اليوم والشهر والعام - بالضبط - الذي اقتحم فيه الجنود الجدار الذي يضم قبر نوستراداموس !

وقد أعيد دفن الجثمان بعد ذلك في كنيسة "سان لي لوران" في "سالون"، ويمكن مشاهدة القبر وصورة المتنبئ الكبير هناك حتى اليوم.

ترك محب كنيسة المادلين وراءه ودلف إلى شارع روايال الأنيق الهادئ الذي كان دائمًا يبعث في نفسه سكونًا جماليًا، وطاف ببصره في فترينات المحلات تلتمع تحت شمس مايو الحلوة، وتسمح له بالتجول بعينيه في المعروضات البارقة الزاخرة. البوتيك الشهير لصاحبته الأميرة الروسية التي تعرض أحدث الكرافتات واللفاعات لـ بيير كاردان وإيف سان لوران، التي كان يعجب بها؛ لا لرمزها الطبقي المتميز؛ ولكن بوصفها قطعًا فنية جمالية تهز فؤاد الفنان فيه... ثم مقهى روايال الشهير الذي كان يحب الجلوس فيه منذ أن قرأ في كتاب لتعليم الفرنسية أن هذا المقهى يقدِّم أفضل قهوة باللبن في باريس.. وبعد أن راجع ساعة يده، عرج على المقهى ودخله، ثم جلس إلى مائدة داخلية تطل عى الشارع. جاءته الفتاة في زي الجرسونات، فطلب منها القهوة باللبن ثم سرّح طرفه في الطريق، والغاديات الرائحات، فكأنما هو في جروبي سليمان، وقد انعقد مجلس الشلة المعروفة وهو في وسطهم يطل على شارع قصر النيل ليرى الحياة من خلف النافذة.. وحملته هذه الفكرة إلى العودة بخياله إلى حياته في القاهرة. لقد ترك في مصر حياة حافلة بالأصدقاء والنشاط الفني والثقافي، والتردد على دور السينما والمتاحف والمكتبات والندوات والمحاضرات والمسارح، واشترك في نادي السينما في أول إنشائه، ومسرح الجيب، حيث شاهد أعمالاً طليعية تركت في نفسه أثرًا لا يُمحى.

انثالت هذا الأفكار تترى على ذهن "محِّب" وهو يحتسي القهوة باللبن في روايال، ثم وهو يسير الهوينى في الشارع، ويظهر على ميدان الكونكورد الفسيح؛ أكبر ميدان في العالم.. وأجمله ؟ هذا فيه نظر. الميدان ضخم، ترصعه التماثيل من كل لون وصنف، وتعلو في جزء منه المسلة المصرية الفارعة المحاطة بسياج حديدي، والتي لا تخلو أبدًا من كوكبات السائحين الذين يحاولون قراءة ما هو مكتوب عليها، كان نصًّا بالهيروغليفية عن رمسيس الثاني ورمسيس الثالث؛ كما يذكر الشرح الفرنسي، بالإضافة إلى شرح كيفية نقل المسلة إلى فرنسا من مصر.

هذه المسلة كانت قائمة منذ آلاف السنين أمام معبد الأقصر. هي ومسلة ثانيةح ربما وثالثة ورابعة، ولكن أول بيان لها يذكر أنها كانت واحدة من اثنتين ملقاتين في إهمال ومطمورتين أمام بقايا معبد الأقصر، كان ذلك في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي. وأول من فكَّر في نقلها إلى فرنسا هو طيب الذكر العلاّمة "فرانسوا شامبليون" الذي حلَّ طلاسم اللغة المصرية القديمة، وكان ذلك إبان رحلة له إلى مصر، وأرسل من الأقصر عام ١٨٢٩ إلى أخيه لأول مرة بذلك الاقتراح بعد أن شاهد المسلتين. وبعد عودته إلى فرنسا، أرسل إلى وزير البحرية الفرنسي خطابًا يبيِّن فيه دهشته من عدم وجود أي أثر يمثل "حملتنا المصرية المدهشة" في الأراضى الفرنسية. وقد اختار المسلة اليمنى لأن حالتها جيدة، وتفْضُل مسلة كليوباترا في الإسكندرية (الأولى الآن على شاطئ التيمز والأخرى في سنترال بارك بنيويورك). وقد أهدى محمد

علي باشا مسلتي الأقصر لفرنسا بعد إلحاح المسيو ميمو القنصل الفرنسي بالقاهرة وقتها. وتم بناء سفينة خاصة تدعى "الأقصر" في فرنسا لنقل المسلة الأولى التي اقترحها شامبليون، وعُهد إلى المهندس الفرنسي "لي باس" بنقلها من الأقصر عبر النيل إلى البحر الأبيض إلى نهر السين في فرنسا. وتم هذا بجهد وصبر عظيمين؛ وجرى الاحتفال بتنصيب المسلة في هذا الموقع الذي يشخص إليه محب ببصره الآن، في ٢٥ أكتوبر ١٨٣٦ بحضور لويس فيليب ملك فرنسا وزوجته الملكة و٢٠٠ ألف مواطن فرنسي يهتفون فرحين مع أصوات الأبواق والموسيقى.

جالت عينا محب إلى موقع آخر، يقوم فيه تمثال من تماثيل الميدان. هنا. نعم، هنا. عام ١٧٩٣. وغمرته نوبة البحران المذهل التي كان يظن أنها انتهت بسفره إلى فرنسا. ومن لا يفهم معنى كلمة "بحران" عليه بالرجوع إلى القاموس، أو إلى كتاب الدكتور عوض علي هامش الغفران.

رأى الموكب ينطلق بما فيه عربة الملك عبر شارع روايال، والملك واقف يحيط به الحرس، وألقى ببصره إذ أشرف على الميدان، الميدان الذي يعرفه باسم الثورة، إلى حيث مكان التمثال الذي ينظر محب إليه بعد كل هذه السنوات، فرأى مشهدًا آخر... المقصلة. وترجل الملك من العربة، وصعد الدرج الصغير في خُطى ثابتة، في قميص أبيض ناصع. وعندما وقف على خشبة المقصلة، واجه الجماهير وأعلن أنه يموت بريئًا وأنه يعفو عن قاتليه، ثم دقت الطبول بعد ذلك كي

تطغى على صوت الملك، الذي تقدم إليه الجلاد بخشونة وربط يديه وراء ظهره بعد اعتراض الملك وطلب القس منه أن يمضي في تنازله الروحي إلى هذا المدى أيضًا، ثم هوى النصل ففصل رأس الملك عن جسده، وأمسك الجلاد بالرأس يعرضه على الجمهور الذي علا هتافه وأسرع أفراده يغمسون أياديهم في دماء الملك.

هكذا كان هذا الميدان منذ ما يقرب من مائتي عام. وهو اليوم رمزٌ لمدنية وحضارة وأسلوب في الحياة جد مختلف عما شهده من وقائع التاريخ.

أفاق محب من هذه الرؤيا وهو ما زال في الميدان. كانت هذه النوبات الغريبة تنتابه من زمن طويل، منذ كان عمره أربعة عشر عامًا.. كان متعودًا أن يستأجر دراجات مع عددٍ من أصدقائه يجوبون بها طرق المعادي الهادئة، ويتسابقون ويضحكون. ومرة، كان محب مسرعًا بدراجته حين فاجأته عربة نقل قادمة في مواجهته، فكان رد فعله الفوري هو الانحراف سريعًا إلى اليمين، مما أنقذه من موت محقق، ولكنه اصطدم بجدار من الأسمنت على يمينه، مما جعله ينقذف من مقعد الدراجة ويصطدم رأسه بالجدار. وجاء الأصدقاء فزعين، وأعانوه على النهوض، ولم يكن هناك أي جرح في الرأس، فنفضوا الغبار عن ملابس محب، الذي كان ذاهلاً عن كل شيء، وأرجع أصدقاؤه هذا الذهول إلى الصدمة العصبية من جراء ما حدث من ظهور عربة النقل أمامه وإفلاته من موت محقق. ولم يكن أيامها تفكير في الذهاب إلى طبيب أو مستشفى، فتعاون الجميع على

اصطحاب محب إلى منزله، وعادوا بدراجته لإرجاعها... أما ما حدث لمحب فشيء عجيب؛ فقد بدا فترة فاقدًا للذاكرة، وكان كذلك حين عاد للمنزل ودلف إلى حجرته وتمدد على سريره.

ثم بدأ أول بحران له في زيارة مع مدرسته إلى قلعة صلاح الدين، فبينما كان ينظر إلى جامع محمد علي، إذ غامت عيناه ووجد نفسه وسط جمع غفير في ملابس مزركشة وعلى أحصنة، بينما هو كان راجلاً وفي ملابسه العادية. كان الركب يتقدم ببطء صاعدًا إلى قلعة صلاح الدين، والأبواق تصدح، إلى أن وصل الموكب إلى باب العزب حيث كان الحوش ضيقًا، فانغلقت الأبواب وراء الفرسان، ثم بدأ جنود في كل الجوانب يطلقون النار على هؤلاء الفرسان. أدرك محب أنه يشهد أحداث مذبحة القلعة أيام محمد علي الكبير؛ ولكنه ليس في السينما ولا المسرح، بل هو في وسط الحدث كما وقع أيامها. وكان الرصاص يتناثر ويئز من حوله ولكنه لا يصيبه، بل ينحرف عنه دائمًا. واعتراه ذهولٌ لم يفق منه إلا بعد دقائق : فهل كان ما رآه حُلمًا أم واقعًا ؟ لم يستطع أن يبت في ذلك الأمر إلا بعد أن حدث له البحران التالي بعد شهر ونصف، ودام فترة أطول من الحادثة الأولى. وجد نفسه ناظرًا مهرجانات سابغة واحتفالات عظيمة، ولكن الناس في ملابس مختلفة عن الحاضر؛ عرف من بين الوجوه ومن الملابس الخديوي إسماعيل، يحيط به وزراؤه وحُرّاسه، وكان في انتظار الإمبراطورة أوجيني، التي ما لبثت أن وصلت يحيط بها كوكبة من سدنتها الفرنسيين. واستقبلها الخديوي إسماعيل بتقبيل يدها، ثم

اصطحبها إلى العربة الملكية التي ستقلهما إلى حفل افتتاح قناة السويس. ووجد محب نفسه في وسط الاحتفالات والصواريخ النارية، إذ الجميع يحتفلون بصخب أمام قناة السويس. ثم أفاق محب من نوبته تلك التي أكدت له أن ما يحدث مستمر، ولم يكن يدري كيف يتصرف أمام هذا " المرض " الذي أصابه، هل يخبر والديه ؟ هل يذهب إلى طبيب ؟ بيد أنه لم يفعل أيّاً من ذلكما، ربما لصغر سنه وقلة خبرته.

وحين التحق بقسم التاريخ، وجد أن هذه النوبات يمكن أن تكون في صالحه، إذ كانت تتيح له أن يشهد أحداثًا تاريخية رأي العين، مما قد يمكِّنه يومًا من كشف أسرار لا يعرفها أحد. وكانت تتيح له أيضًا إحساسات غامضة بأشياء قد تحدث مستقبلاً.

الغريب أن تلك النوبات - مهما طال زمنها الخيالي - لم تكن تستغرق في الواقع سوى دقائق معدودات فحسب، وحين يعود إلى وعيه يجد نفسه في المكان ذاته ومع من كان معهم، وهم يظنون أنه قد شرد بذهنه قليلاً، إلا من كان يعلم موضوع نوباته تلك.

عبر محب الميدان، وتوقف أمام المسلة، وضرب ببصره عبر البولفار العريض، فرأى قوس النصر في الأفق، وبدا له قريباً منه، ولكن تجربته السابقة جعلته يعرف أن الطريق إليه طويل وما هذا إلا خداع للبصر. "وما هي إلا ذكرى للبشر. لمن أراد أن يذّكر".

كان اليوم يوم أحد، واليوم الذي يخصِّصه محب في كل شهر لارتياد متحف اللوفر وغيره من المتاحف الباريسية، لأنه يعطي لنفسه إجازة من التوفر على الدراسة وارتياد المكتبات، ليسرح طرفه في أرجاء المتحف ممتِّعًا ذهنه وعينيه على السواء. وكان قد اتفق مع زميلته المصرية "كميلة الجرّاح" التي تدرس في "البوز آر" لمقابلته أمام اللوفر ليريا معًا لأول مرة عددًا من الأجنحة التي تشوقهما. وكان عليه للوصول إلى مبنى اللوفر المهيب أن يدلف إلى شارع ريفولي الموازى لحدائق التويلري ويسير فيه إلى أن يبلغ صدر المتحف الذي سيلتقي عنده بكميلة. وكان ريفولي من الشوارع المحببة إليه لامتلائه بالبوتيكات الفنية التي تبيع نماذج سياحية لكل ما يجذب الزائر إلى فرنسا. تطلع برهة في فترينة محل لبيع طوابع البريد والعملات التذكارية وتساءل متى يا ترى سيبدأ مشروعه في جمع الطوابع الخاصة بأعلام الفن والأدب الذي انتواه منذ فترة. وكان قد فكَّر في ذلك بعد أن ابتاع طابعًا نادرًا من سوق البراغيث؛ أي سوق الكانتو الفرنسي؛ عليه لوحة للرسام الشهير فان جوخ.

وهذه التماثيل المصغرة للأعمال الفنية المعروفة، رودان ومفكّره وقُبلته، وحتى فينوس دي ميلو، وهي إحدى الواجبات المتكررة التي يتطلع إليها حين زيارة اللوفر.

وصل إلى الساحة التي سيلقى كميلة عندها، وكالعادة لم يجدها قد وصلت بعد، مع أن الموعد قد حان. طبعًا، هي فنانة، والفنانون لهم طباعهم وغرائبهم. وكانت كميلة هي أول من علّقت على نوبات

البحران التي تنتابه، وكان تفسيرها لها مما طمأن محب إلى أنها يمكن أن تكون ذات منفعة له في آخر الأمر. سألته كميلة عما إذا كان مايراه يتعلق بالماضي فقط، فقال: لا، فهو يرى أشياء ومواقف لا يدري عنها أي شيء وهي بالتحديد لم تحدث في الماضي. فأجابته أن ما يحدث له هو ما حدث لمتنبئ فرنسي قديم يدعى نوستراداموس الذي كتب ما كان يراه في نوباته عن المستقبل، وهي تنصح محب أن يكتب ما يراه في بحرانه، فمن يدري ؟ وقالت له إن بلدة نوستراداموس هنا في فرنسا وقد زارتها وبها متحف عنه. وطمأنته بأن لا يقلق مما يحدث له وأن يستغله كما استغله نوستر اداموس فيكتب له الخلود !.

* * *

أقبلت كميلة مسرعة ناهدة. كانت فتاة صغيرة الحجم، سمراء، سريعة الحركات. صافحت "محب" وجذبته من يده إلى الجانب الآخر من اللوفر.

- إلى أين تذهبين؟ اللوفر من هنا.
- آه. ولكني غيرت رأيي. لا بد أن أزور متحف الفن الحديث. الجي دي بوم. وأراهن أنك ستسعد به. هل زرته من قبل؟
- طبعًا. ولكن لا مانع من زيارته الآن معك. إني واثق أن زيارته بصحبتك ستكون ممتعة ومفيدة.

وانطلقا وهما يتحادثان عن آخر أخبار دراستيهما.

- إني مضطرة إلى الذهاب اليوم وربما في الأيام القادمة كذلك، فقد كلَّفني أستاذي في الكلية بكتابة بحث عن لوحة لـ"مانيه". كنت أفضِّل أي لوحة أخرى لـ"فان جوخ" فهو الأثير لديّ. كما أنني لم أدرس مانيه بما فيه الكفاية. ولكن عليّ أن أبدًا الآن.

- سنرى ما يحويه المتحف من أعماله. أنا أحب جدًا لوحات كلود مونيه، وهي التي أتردد على الجي دي بوم لتأملها. كما أنني في بداية إعجاب غامض بسيزان ورينوار.

- رينوار ! هل تحب النوع الذي يرسمه من النساء؟

قالت هذا وهي تضحك، فاحمر وجه محب.

- أعرف ما تقصدين. ولكني لا أرى في لوحاته إلا التعابير الفنية.

- قل التعابير الإيروسية. أنا أعرف أنك تهتم بالتاريخ والمؤرخين. فما اهتمامك برينوار وغيره؟

- إني أقرأ كثيراً في الفن والتصوير. وقد شاء قدري دراسة التاريخ وإن كنت أفضِّل أن أفعل ما تفعلينه أنتِ. غالباً ما تطرح الأقدار بالمرء في غير ما يحب. هذا ما حدث مع توفيق الحكيم، أتذكرين؟

- طبعًا. طالما قرأت كتبه عن باريس قبل مجيئي. وربما تفعل أنت مثله وتتحول إلى دراسة الفن، أو الأدب إن كنت تفضل ذلك.

- تعرفين صعوبة التحويل. إني هنا في بعثة للجامعة، ولست مثلك في دراسة حرة.

وكانا قد وصلا إلى المتحف الصغير الذي امتدَّ أمامه صفٌ طويلٌ من الزوار ينتظرون دورهم. المتحف صغير ولا بد من توسيعه....

[كان العام هو ١٩٦٩، ولكن "محب" كان في نوباته كأنما يستشرف الغيب، فرأى كيف أن فرنسا كانت تدرك ذلك، وأنها قامت في عام ١٩٨٦ بنقل لوحات الانطباعية كلها إلى متحف جديد فخم ضخم هو متحف دورساي الذي أقامته مكان محطة دورساي للسكك الحديدية .

كان محب في وقفته في الطابور يفكِّر في كميلة وحياتها في باريس. كان يعرف أنها خريجة الفنون الجميلة بالزمالك، وأن أهلها ميسورو الحال واستطاعت أن تخرج من مصر بعد حرب ١٩٦٧ مباشرة -وكان الخروج آنذاك أشبه بالمستحيل- وأنها تدرس للأستاذية في الفن ببطء وتعيش حياة حافلة في باريس. وكان يسمع إشاعات عن صداقاتها التي تقارب العلاقة الدائمة مع رامي، وعن اعتزامهما الزواج قريباً أو بعد أن يعودا إلى مصر، ولا يعرف كيف تتفق تلك الشائعات مع ما تقوله كميلة تلميحًا إنها تعتزم البقاء في فرنسا بعد حصولها على درجتها العلمية.

- أنا دراسة حُرّة نعم. وهذا يزيد من صعوبة حياتي هنا. ولكنه، من ناحية أخرى، يجعلني حُرّة أيضًا في حياتي ودراستي ولستُ ملزمة بإشراف مكتب البعثات.

- والله عندكِ حق. إن ارتباطي بجامعتي في القاهرة يقيِّد من نطاق دراستي ويحدِّدها بالموضوع الذي خرجتُ لإنجازه. ولو

أردتُ أن أغيِّر فيه ولو قيد أنملة فلابد من الرجوع إلى مكتب البعثات الذي يرجع بدوره إلى الكلية الموفدة. لشدَّ ما أتمنى لو كنتُ مثلك.

- حيلك، حيلك. إنك لا تدري الصعوبات التي تكتنف الحضور إلى عاصمة كباريس على حسابك. أنا أيضًا أكاد أحسدكم على الاستقرار الذي تعيشون فيه.

- هذه هي المسألة، كما يقول هاملت. لا أحد يجد الراحة في نظام حياته.

ودلفا أخيراً إلى المتحف، وسط زحام شديد كان مألوفًا لديهما لكثرة ما ترددا عليه من قبل. وكان هناك بضع كتابات منتثرة هنا وهناك عن الانطباعية، وجد محب كميلة تخرج ورقةً وقلمًا وتنقل منها ما تريد. ووقف هو يُسرِّح الطرف في اللوحات التي حوله، وينظر إليها من بعيد.

- ما هي لوحة مانيه التي ستكتبين عنها؟ لا بد أنها لوحة المرقص.

- لا. إنها غداء على العشب. ولكني أريد أولاً أن أنقل ما كتبوه هنا عن مانيه.

وأخذت كميلة تكتب. وتَعجَّب محب من سهولة تعاملها مع الفرنسية المكتوبة، وودَّ لو يصبح مثلها، وإن كان يعرف أنها قد درست في الليسيه فرانسيه في مصر.

لوحة الشعراء التي تجمع بين رامبو وفرلين. وربما هذا أيضًا بودلير. لا بد من زيارة مقابر مونبارناس لزيارة ضريح بودلير وغيره من المشهورين. ولوحات كلود مونيه، أفضلها لديه "أزهار الخشخاش". أطال النظر إليها، وشعر بنفسه في الحقل وسط الأزاهير وسنابل القمح الذهبية. هل يا ترى سيترجم سمير اسم هذه الأزهار بالعربية أم سيغيِّرها كما نصحه محب، أم سيتمسك بالترجمة الحرفية لها. إذ من يعرف كلمة الخشخاش، ثم انها ستختلط في ذهن القارئ أيضًا بنبات الخشخاش الذي يستخرجون المخدرات منه. لقد نصحه محب أن يستبدل بها اسم "شقائق النعمان"، وهذا مسموح به في الترجمة، وخاصة ترجمة الشعر، كما قرأ في مقالة لفيلسوف مصر ومفكرها في مجلة الفكر المعاصر التي كانت تصدر في العصر الزاهى الغافل، قبل وقوع حرب ١٩٦٧ التي زلزلت جذور كل شيء حي وميت واقتلعت الجلاميد الراسخات.

وتتالت اللوحات أمام بصره: مونيه، وتولوز لوتريك، و...

ولمح من على البعد لوحات مانيه، ومنها غداء على العشب. ولكن كميلة كانت لا تزال تكتب، فواصل خواطره مرة أخرى... كميلة فتاة عصرية، مثقفة، فنانة. ولكن تصرفاتها بل وحريتها تثير القلق. هنا، ربما لا تلفت نظر المصريين والعرب، فهم قد تعودوا على قبول تصرفاتٍ؛ بل والقيام بأعمال؛ قد لا يقبلونها ولا يقومون بها في بلادهم. هذا عجيب طبعًا، ولكنه واقع الحال. هل تذكر قصتك مع سناء وما جرى لك معها؟! إذا كنتَ فعلتَ ما فعلتَ مع سناء، فلماذا

لم تفعله مع ماري كلود؟ طبعًا لأنها فرنسية ولا يمكن أن تطلب منها الحد من حريتها بأى شكل من الأشكال، ولهذا لم تستمر علاقته بمارى كلود. واستمرأ في خياله أن يتصور أنه يقيم علاقة مع كميلة ثم يفرض عليها قيوده وغيرته التي فرضها من قبل على سهير في القاهرة حتى خضعت له تمامًا واستقامت خطبتهما.

ولم يشعر إلا وكميلة تجره جرّا من يده، وهي تقول له: هيه، اصح. هيا بنا إلى مانيه.

ووقفت معه إلى جوار لوحة "غداء على العشب". وراحت تدرسها وتلتهمها بعينيها، ثم قالت له كأنما هي تشرح:

- لقد رسم مانيه هذه اللوحة عام ١٨٦٣، وقد رفض المحكمون عرضها في الصالون الرسمي، فعرضها مانيه في صالون "المرفوضين". وقد صدمت اللوحة المشاعر البورجوازية التي كانت سائدة في عصر إمبراطورية نابليون الثالث، وذلك لما قدَّمه الرسام فيها من ثلاث شخصيات معروفة - أحدهم زوج أخته - يتناقشون وهم جالسون على العشب ومعهم امرأة عارية. وكان العُري في الرسم مألوفًا قبل ذلك ولكن في الشخصيات الأسطورية والتاريخية فحسب، فجاء مانيه وهدم ذلك كله بلوحته تلك التي استوحاها من منظر المستحمات على شاطئ "أرجانتي". وقد شكلت ثيمة المستحمات بعد ذلك لازمة لكل رسام أتى بعده، خاصة سيزان، حتى بيكاسو في بعض لوحاته. وقد وجد بعض النقاد تأثيراً إفريقياً في بعض لوحات بيكاسو. ولكم

أحب أن يدرسوا الأثر العربي في لوحات البعض ممن زاروا بلادنا، مثل ديلاكروا.

فشكرها محب على ذلك الشرح، وقال لها:

- أتعرفين بالمناسبة أن العرب قد وصلوا في فتوحاتهم الأوروبية إلى أفينيون واحتلوها فترة طويلة، حتى بعد موقعة بلاط الشهداء الشهيرة ؟
- لا، لم أكن أعرف ذلك. هذا رائع حقًّا. هل ذهبت لزيارة تلك المواقع ؟
- ليس بعد. ولكن لا بد أن أذهب، فموضوعي هو عن الحروب الصليبية وتاريخها، وهذا يتصل بفتوحات العرب والمسلمين في أوروبا.
- كما تقول، كم أخطِّط أنا أيضًا لزيارة منابع الإلهام في أوروبا كلها. وأنا أضع في خيالي منذ الآن خطة لرحلتي إلى الجنوب، حيث عاش فان جوخ، لأنني أنوي أن أتخصص فيه.
- إنه رسامي المفضل.
- لا بد إذن أن تزور أيضًا هاته الأماكن. ولا بد أيضًا من زيارة أمستردام لرؤية لوحاته في متحف رامبرانت. إني أتعجب كيف لا يخصِّصون ملفًا مستقلاً لفان جوخ في بلده.

فقال لها محب وهو في نوبة استشرافية إن هولندا ستقوم بتشييد متحف فان جوخ في أمستردام بالقرب من متحف رامبرانت القومي في المستقبل.

ولم تتفهم كميلة ما قاله محب، وأضافت بعد فترة صمت: تستطيع أن تأتي معي إن أردت.

وطاف في ذهن محب صورة رامي وماذا يمكن أن يقوله لو علم بذلك، ولكنه أجاب باختصار:

- فلنتركها للظروف. ولكن هيا بنا قبل أن نخرج نلقي نظرات على اللوحات الموجودة.

وطافا معًا يرمقان اللوحات بانبهار: كنيسة أوفير، صورة الدكتور جاشيه، المطعم الباريسي، غرفة الفنان في آرل، المنزل الأصفر، مجموعة من البورتريهات الشخصية للفنان.

وبعد ما يقرب من الساعتين في محراب الفن والجمال، استعدا للخروج. وسحبت كميلة محباً إلى صالة المشتريات، ولكنه قال لها إنه لا يريد شيئًا. أما هي فقد أخرجت رزمة من الفرنكات، واشترت كتيبين صغيرين عن متحف جي دي بوم، ونسخة ملونة كبيرة من لوحة غداء على العشب، ثم جذبت نسخة من لوحة رينوار "المستحمات" وقالت لمحب إنها تهديها له. ورغم احتجاجات محب، أعطتها له قائلة: هذه تمثل عاريات رينوار أفضل تمثيل. إني واثقة أنها ستكون من لوحاتك المفضلة.

واحمر وجه محب وهو يتناول اللوحة من كميلة.

(٢)

كان محب قد حضر إلى باريس في بعثة للحصول على الدكتوراه من جامعة باريس في التاريخ الإسلامي، فبعد أن التحق بكلية الآداب جامعة القاهرة، حاول الالتحاق بقسم اللغة الإنجليزية، ولكنه وجد أنه يشترط التخصص في اللغة في الثانوية العامة، وكان تخصصه في التاريخ، فلم يُقبل طلبه، وحولت أوراقه إلى قسم التاريخ. وكان قسم التاريخ يقع في نفس مبنى قسم اللغة الإنجليزية، في الطابق العلوي، فكان ذلك يذكّره دائمًا بخيبته في الالتحاق بالقسم الآخر،خاصة حين يرى طلبة وطالبات قسم اللغة الإنجليزية وما يمثلونه له من حلم لم يتحقق. وقد دفعه هذا الشعور إلى محاولة بذل الجهد في الدراسة وا لتفوق فيها، فتخرج من القسم بتقدير ممتاز، مما سهَّل له العمل معيدًا والحصول على الماجستير تحت إشراف أستاذه وراعيه الدكتور الشافعي، وهو الذي ساعده أيضًا في الحصول على بعثة إلى فرنسا لنيل الدكتوراه. وكان محب يفضِّل الذهاب إلى بلد لغته إنجليزية، فهو قد عكف أيام الجامعة على دراسة تلك اللغة وقراءة المراجع بها، والتحق بدورات اللغة في المجلس البريطاني والجامعة الأمريكية. ولكن حظه قد ألقى به إلى بعثة في فرنسا بالذات، طبقًا للتخصص الذي رسمه له أستاذه بدراسة التاريخ الإسلامي، وخاصة علاقات الشرق والغرب في عصر المؤلف الفارس أسامة بن منقذ. ورغم أن المخطوط الأصلي لكتاب بن منقذ موجود في ضاحية من ضواحي

مدريد بإسبانيا فإن أخبار العثور حديثًا على مخطوط آخر للكتاب في الجناح الشرقي للمكتبة القومية بباريس دفعت الدكتور الشافعي إلى تعديل خطة الدراسة للذهاب إلى فرنسا وإعداد الرسالة اعتمادًا على ذلك المخطوط الجديد. وقد سهَّل له الأمر أن الفتاة التي أغرم بها أيام الجامعة كانت في قسم اللغة الفرنسية، وكان دائمًا معها ويسألها عن دراساتها وقراءاتها وهي معظمها بالفرنسية. وكانت قصة حبهما أسطورة عرف بها كل من كان في كلية الآداب ومن يتردد على المكتبة والبوفيه. ولكن كان لديه هوس يخالجه ويقض مضاجعه من جراء الصلة التي ربطت سهير بأستاذها في قسم اللغة الفرنسية، فقد كانت دائمًا معه وتتحدث عنه كثيراً مع محب، مما جعله دائم الانشغال والغيرة، بالإضافة إلى أن سهير قد ذكرت له عرضًا أنها تشعر باهتمام غير عادي للدكتور عزيز - أستاذها - بها، بل وحبه لها.

وحين كان يترقب البعثة شجعته سهير على الالتحاق بدورة لغوية سريعة في المركز الثقافي الفرنسي في المنيرة، أعطته الأسس اللازمة لدراسة اللغة، وأضاف لها هو من عنده دراساته وقراءاته الخاصة المتوسعة، بالإضافة إلى الاستماع إلى الإذاعات الفرنسية ومحاولة رؤية ما هو موجود من أشرطة الأفلام الفرنسية، وطبعًا بالإضافة إلى المحادثة مع سهير التي أصبحت بالفرنسية منذ ذلك الوقت.

وكانت رحلته إلى باريس على متن الطائرة المصرية، أول مرة يستقل فيها الطائرة في حياته. وما يزال يذكر الرهبة التي انتابته إذ

الطائرة تقلع وقد جلس متصلبًا في مقعده لا يجرؤ على الالتفات يمينًا أو يسارًا. ولمَّا مضى وقت لم يحدث فيه شيء، تطلع على يساره إلى النافذة فرأى ما يشبه الطريق الممهد الحريري، فظن أنه الطريق الصحراوي الذي يربط بين القاهرة والإسكندرية، وذلك قبل أن يتبين مع إمعان النظر وبعد فترة طويلة أنه إنما يتطلع إلى جناح الطائرة !.

وكانت أيامه الأولى في باريس تخطر على باله كالحلم، إذ يتلمس خطواته في هذا العالم الجديد، ويجد نفسه ضائعًا في هذه المدينة، وهو في نفس الوقت مبهور بما يراه وبما كان يحلم برؤيته. واستعمل المفردات التي كان يعرفها من دراسته العاجلة للغة الفرنسية في العثور على فندق رخيص، ثم استعان بخريطة للمدينة على التوجه إلى مكتب البعثات المصري في السفارة المصرية بباريس. ومازال محب يذكر الفترة الطويلة التي قضاها في المكتب، في انتظار إنهاء الأوراق اللازمة له، من صرف مرتب البعثة، وتوجيه خطاب للجامعة التي سيدرس بها، إلى تسجيل نفسه لدى المكتب. وكان يظن أن عون المكتب سيكون أكبر من هذا، ولكنه كان معتادًا على معاملات المكاتب المصرية وما هذا إلا امتداد لها؛ وإن كان قد وجد في أحد الملحقين الثقافيين بالمكتب ودًا وبشاشة، إذ جاذبه أطراف الحديث واستفسر منه عن دراساته وقراءاته، وقال له إنه هو نفسه كان يأمل في متابعة دراساته هنا، ولكن اعتبارات العمل تمنعه من المُضي قدما في إعداد رسالة الماجستير التي سجلها فعلاً وإن كان لا يجد وقتًا للذهاب إلى المكتبات والبدء في الرسالة. وقامت صداقة بين

محب وذلك الملحق واسمه رامي، تمثلت في عدة دعوات على الغذاء أو القهوة ومناقشات في التاريخ والفن، وكان رامي أعزبًا لا يرغب في الزواج، على غير عادة الدبلوماسيين المصريين حين يوفدون إلى الخارج، وزاره محب في شقته الأنيقة في الحي البعيد عن السفارة، وأعجب بذوقه في معيشته، واستمعا معًا عدة مرات للموسيقى من الإسطوانات العديدة التي زوّد بها رامي شقته.



وصل محب إلى فندقه بعد أن أكل وجبة سريعة في المطعم الصغير الذي اعتاد ارتياده. كان فندقًا متواضعًا في حي سان لازار، يديره بعض الشبان المغاربة، ويبدو أن مالكه يهودي فرنسي. وكان محب ضائقًا به، نظراً للضوضاء الشديدة التي تصله على الدوام في حجرته الصغيرة به. كان الفندق يقع في قلب الحي، على بعد أمتار قليلة من محطة القطارات المشهورة. كان قد انتقل إليه منذ شهرين، وهو مصمم الآن على تغييره في أول فرصة تسنح له. وكان قد هام بحي سان لازار منذ قرأ قصيدة لويس عوض الشهيرة في ديوانه الشهير بلوتولاند، الذي كان قد نفد من الأسواق ولم يُعد طبعه، ولكنه استعاره من مكتبة الجامعة ونسخه كله تقريباً.

دخل حجرته في حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر، وكانت معتمة رغم وجود شيء من الشمس في السماء، فخلع ملابسه وتمدد على السرير وأخرج لوحة رينوار وأخذ يتأملها. هذا حصاد الصباح من

الزاد الفني والأدبي. هل يا ترى سيتاح له قريباً أن تكون له شقة صغيرة رخيصة يمكن أن يجمع فيها ما يريد شراءه من كتب وأوراق؟ إن مرتب البعثة لا يكاد يفي بمصروفاته ولا بد من استكماله بعمل ما. وهو قد أوصى كل من يعرف أن يدله على أي مكان يعمل فيه بعض الوقت. ورغم علمه أن ذلك سيفتئت على وقت الدراسة والبحث، فإن الاستمرار على هذا الوضع المالي أمر محبط. فكيف له أن ينهل من الثقافة والفن والمعرفة دون أن يتمكن من الولوج إلى كل هذا. وهذه الأمور تكلِّف نقودًا. ويكفيه النهل من الجمال، فهذا شيء مجاني، وأوقات المتاحف المجانية، والمكتبات العامة. ولكن في داخل نفس كل فنان وأديب تكمن بذرة حب امتلاك مصادر الفن والمعرفة، حب الكتب، بل جنون الكتب، واقتنائها جنباً إلى جنب مع أدوات الفن التي لا غنى عنها: راديو رائق الصوت، بيك أب وإسطوانات أساسية، نسخٌ من اللوحات العالمية، وغير ذلك كثير. كان قد استبدل بسور الأزبكية بالقاهرة سور نهر السين، حيث "الورّاقون" على قول الجاحظ، ومكتباتهم العديدة، التي ابتاع منها عددًا من الكتب التي تهمه. وهو لم يكن يجسر على عمل ما قام به توفيق الحكيم في فترة ما قبل الحربين في باريس، حين كان يمكث طوال اليوم في مكتبة لبيع الكتب يقرأ ما يريد، ثم ينصرف آخر النهار بعد أن يشتري كتاباً رخيص الثمن "مداراةً لصاحب المكتبة".

وجال في خاطره ما تطوعت به كميلة من محادثة رامي لإلحاقه بوظيفة مشرف مناوب على مكتبة المركز الثقافي. لو نجحتْ في ذلك

سيكون الأمر عظيمًا من كل الوجوه. فبالإضافة إلى زيادة دخله بحيث يستطيع استئجار شقة صغيرة، فالعمل يستهويه حيث سيكون بين الكتب على الدوام؛ كما أنه لن يعيقه كثيراً عن دراسته، لأنه فهم منها أنه سيكون ثلاثة أيام في الأسبوع فقط. وهو سيعمل تحت رئاسة مساعد الملحق الثقافي الذي هو مدير المركز، ذلك الرسام المثقف الذي يحبه كثيراً والذي هو قريب جدًا للناس ولطلبة البعثات من الملحق الذي تضفي عليه صفته الدبلوماسية نوعًا من الجمود رغم كل شيء.

وأحس عند ذلك بالضجر، وانتابته حالة من الضيق من حجرته، فلبس سترته وخرج قاصدًا مقهى يتجمع فيه عدد من المصريين في كل الأوقات. وكان مقهى ريتز في شارع "مونج". وسار على قدميه ينهل من ثراء المحلات الباريسية التي كان يحب دائمًا أن يتأملها. أما حين كان يمر على مكتبة، فلزام عليه أن يقف أمامها يطالع عناوين الكتب المعروضة ويحلم بشراء ما يريده منها. هذا هو الكتاب الشهير عن التحدي الأمريكي، هل يا ترى ستفلح فرنسا في التصدي لهذا التحدي وتسير على خُطى ديجول وخليفته، أم أن أمريكا ستمضي في سيطرتها على الكتلة الغربية، مقابل الاتحاد السوفيتى ومعه الكتلة الشرقية ؟ وانتابته تلك الحالة الغريبة التي كان يمر بها، فأحس بأنه في بُحران. وإذا به وقدماه تسيران في الطريق إلى مقهى مونج، شيئًا فشيئًا، بينما ذهنه ومخيلته في وادٍ آخر. وتجلى الطيف الزمني الهائل من جديد، فإذا به يشعر بأنه في زمن غير الزمن الذي هو فيه، وصور له ذلك

الطيف أحداثًا يظن أنها وقعت وعلم بها واستقرت في وعيه. وعاد إلى ذهنه غلاف الكتاب مرة أخرى، فإذا عنوانه هو البرويسترويكا. ولم يفهم ماذا تعني. وإذا كتاب آخر يتحدث عن سقوط الإمبراطورية السوفيتية. عم يتحدثون؟ وتتالت في ذهنه صورة نيكسون وهو يزور البلاد المختلفة، وهو يعبر في موكب طويل جسرًا بدا كأنه كوبري قصر النيل والأعلام المصرية والأمريكية ترفرف عليه، والاستقبال الرسمي له في مصر، وإذا بمن يستقبله ليس رئيس مصر الذي يعرفه بل رئيس آخر، ثم رأى نيكسون على شاشة التليفزيون يلوّح بذراعه مودعًا وهو يغادر البيت الأبيض في طائرة هيلوكبتر، ثم رأى رئيسًا أمريكيًا آخر ذا وجه صلد وهو يسقط متعثرًا على سلم طائرة، ثم رئيس آخر بشوش، ثم آخر كان قد عرفه ممثلاً سينمائيًا رأى له فيلمًا عن قصة لهمنجواي. ثم وصل زعيم آخر أصبح يُشار له بوصفه زعيم العالم الوحيد، بعد أن زال الاتحاد السوفيتى ودالت دولته. وأين الشيوعية؟ ورأى زعيمًا آخر يُعتقل ويواجه منصة الإعدام ويحاول الإفلات بالجري هو وزوجته، وثورات شعبية تنشب هنا وهناك، وحائط برلين الحجري وهو ينهار، وتباع حجارته تذكارًا للذاكرين... وهكذا سادت أمريكا وساد التحدى الأمريكى في كل شيء.

وأفاق محب من بحرانه، بعد أن اختفى طيف الزمن، ولكنه لم يفهم شيئًا مما رآه بعين ذهنه، واعتبر ما حدث كابوس يقظة آخر.

واصل مسيرته حتى وصل إلى المقهى. ورأى الشلة التي يستريح إليها جالسة في ركن بعيد، يحتسي أفرادها الشاي أو القهوة باللبن. فاتجه للانضمام إليهم.

كانت المناضد متناثرة هنا وهناك، يلتف حول كل منها ما بين أربعة أو خمسة أشخاص. وكانت كل منضدة تجمع شلة معينة تآلف أعضاؤها عل شيء ما، أو اختلفوا على شيء ما. فهذه شلة الطلبة الجامعيين، الذين يدرسون للحصول على الليسانس أو البكالوريوس، وهم ينقسمون عمومًا إلى فئتين رئيسيتين بحسب مستواهم الاقتصادي. الفئة الأولى هي التي أرسلها الآباء للدراسة إلى فرنسا على حسابهم الخاص، وهم ممن يعملون في البلاد العربية ويستطيعون اقتطاع جزء من رواتبهم للصرف على الابن أو الابنة التي لم تفلح في دخول الجامعة في مصر، وقرّروا بناءً على ذلك أن يحمل أو تحمل شهادة جامعية "عالمية". والفئة الأخرى هي ممن يعمل أفرادها للصرف على دراستهم الجامعية، وهؤلاء طبعًا أشقى حالاً وأقل دخلاً من الفئة الأولى، وعدد هؤلاء في باريس كثير، ولا تكاد تخلو مقابلاتهم من شِجار ومعارك، كما أن حديثهم يدور عمومًا حول الفتيات ووسائل اجتذابهن. وكان موجودًا حول المنضدة يومها أربعة.

وشلة أخرى متقدمة عن هذه هي شلة طلبة الدراسات العليا، من دارسي الماجستير أو الدكتوراه، الموفدين على بعثات أو منح، أو الذين يدرسون على حسابهم. وهؤلاء أيضًا تنتشر بينهم طبقية قاسية، فالذى يدرس للماجستير ليس كالذى يدرس للدكتوراه،

ودكتوراه الدولة ليست كدكتوراه الجامعة، ومن يدرس العلوم ليس كمن يدرس الآداب، وكلاهما ليس كمن يدرس الفنون.

وهناك تقسيمات أخرى... فمثلا، هناك شلة الفلاسفة، يقودها الدكتور "سيد" الذي أنهى الدراسة في جامعة السوربون ولكنه لم يعد بعد إلى مصر. وكان محب يسعد بالاستماع إلى مناقشاتهم، بل ويجلس إليهم أحيانًا، خاصة حين يكون بينهم أستاذ الفلسفة العظيم الذي طالما قرأ له في الأدب والشعر والفن. وكان يعتمد عليهم أيضًا في حضور المحاضرات المهمة في الكوليج دي فرانس، وتعرّف بفضلهم على فكر البنيويين فوكوه ولاكان وألتوسير وبارت وغيرهم.

ومن الشلل الهامة أيضًا والمثيرة للعجب تلك التي كانوا يطلقون على أفرادها شلة أصحاب الذقون، ممن كانوا يدرسون فروعًا مختلفة متعددة ولكن جمعت بينهم أواصر الشعور الديني الغامر الذي جعلهم ينصِّبون أنفسهم حماةً للدين ومدافعين عنه ضد كل ما يتصورونه بِدعًا. كانوا من الغلاة المتشددين في كل شيء، حتى يقال إن وقت فراغهم الوحيد يمضونه في هذا المقهى لا غير.

وكان للمصريات أيضًا شللهن الخاصة، رغم وجود الفتيات في شلل الشبان أيضًا، ولكنهن كُنَّ يجتمعن أحيانًا مع بعض المصريات اللاتي لا يرغبن في الاختلاط بالرجال، وكانت تغطية شعر المرأة قد بدأت تظهر لدى قليل من المصريات هناك.

ثم هناك أصحاب الأعمال، ولكنها الأعمال المتوسطة أو الصغيرة، والموظفون الذين استقروا في باريس في وظائف صغيرة أو متوسطة هي الأخرى. وكان منهم التجّار الذين نجحوا في افتتاح مطعم، أو بوتيك صغير في حي شعبي؛ والموظفون الذين يعملون في شركات فرنسية، في أعمال المحاسبة والصرافة، وأحيانًا في الفنادق والشركات السياحية، التي توظفهم لأعمالها مع الدول العربية والزوار العرب. وكانت أعداد المصريين في فرنسا وفي الدول الغربية الأخرى قد زادت بعد هزيمة ١٩٦٧ حين عمل الكثيرون على الهجرة إلى الأصقاع الأجنبية - وخاصة إلى أمريكا - طلبًا لحياة أفضل وعلم أعمق وتحقيقًا لآمال لم يستطيعوا تحقيقها في ظل ما يحدث في بلادهم.

وعلى هذا المنوال كانت تنقسم تجمعات المصريين في ذلك المقهى العجيب، وهو يمثّل مكانًا وسطًا للتجمع المصري، ففي القمة توجد كافتريات وسط المدينة الضخمة، خاصة في شارع الشانزليزيه، ومنها الكافتيريا الحمراء على ناصية أفنيو جورج الخامس التي يرتادها الدبلوماسيون العرب، ومنهم صاحبنا رامي، لتبادل الأخبار فيما بينهم، ومع الكثير من "المنفيين" العرب، الذين اتخذوا ذلك المكان أيضًا نقطة انطلاق، كما يقولون... أما ما دون مقهى مونج فهو ذلك المقهى الشعبى الصرف في شارع سان أنطوان، حيث يتجمع الشباب من طالبي العمل اليدوي صباحًا في انتظار من يختارهم للعمل، ثم مساءً لشرب الشاي والمسامرة، إن كان لديهم وقت أو جهد بعد عملهم اليدوي الشاق طوال اليوم.

وجد محب صديقًا من شلته أمام مائدة جانبية بعيدة عن الصخب، "سامح"، وكان من أحب الأصحاب إليه، إذ كان مبعوثًا لدراسة الأدب، وأوفدته جامعة القاهرة للحصول على درجة الدكتوراه. وقد تسجل في السوربون معه، ويعمل على تأصيل وتحقيق نصوص ألف ليلة وليلة الموجودة في فرنسا. وكان مثله مثل محب، فنانًا يتذوق كل ألوان الفنون ولا يحصر همّه في فرع الدراسة الذي يعمل فيه، كما يفعل معظم زملائهما الدارسين. بل إن مجال دراسة سامح كان يطيب لمحب أكثر من دراسته هو، فالأدب العربي أوثق صلة بالفن منه للتاريخ، وإن كان مما يقرِّب بين الدراستين أن أجواء ألف ليلة وليلة فيها الكثير من الظروف والملابسات المتناثرة في تأليف كتاب أسامة بن منقذ. وكان الصديقان كثيراً ما يتناقشان في الأمور المشتركة التي يتعمقون في القراءة عنها، سواء اتصلت بتخصصهما أو لم تتصل. وكان محب يعلم أن وراء سامح خلفية سياسية تسببت له في كثير من المشاكل مع السلطة، ولكنه كان يحرص على عدم الدخول في تلك الأمور الشخصية معه... والحقيقة أن ثالث هذين الصديقين، أو ثالثتهما، كانت كميلة، التي كثيراً ما كانت تأتي إلى هذا المقهى وتمثِّل عضواً هامًا في شلتهم. ولكنها لم تكن تخطِّط للذهاب إليهم ذلك المساء، إذ أسرّت إلى محب أنها سوف تلتقي صديقًا لها وسيتعشيان سوياً في الشانزليزيه. وكان لدى سامح ما يطمح إليه محب، إذ كان قد عثر -وهو خريج قسم اللغة العربية- على وظيفة في المدرسة الملحقة بجامع باريس، لتدريس اللغة

العربية؛ وكان في فصله الكثير من أبناء العرب المقيمين في العاصمة الفرنسية.

وكان هناك شخصٌ آخر جالسًا مع سامح، لم يكن محب يعرفه. وسلم محب على سامح، الذي بادره بقوله:

- أقدِّم لك الأستاذ عادل عبد المجيد، في دراسة تدريبية بباريس، ووصل منذ شهرين.
- أهلاً وسهلاً، محب فوزي.
- تشرفنا.

وقال سامح إن "عادل" يعمل في المتحف المصري بعد أن تخرّج في قسم الآثار منذ ثلاث سنوات، وإنه قد حصل عل منحة للتدريب في فرنسا، خاصة في متحف اللوفر.

- وكيف وجدت باريس واللوفر ؟
- أنا ما زلت أستكشف كل شيء. واللغة أيضًا مشكلة رغم إني تلقيت التدريب المعهود في مركز المنيرة. ولكني سعيد جدًا بوجودي في اللوفر الذي كنت أسمع عنه. وسعيد أيضًا بالتدريب الذي أتلقاه في حفظ الآثار وترميمها.
- وما الذي جذب انتباهك أكثر من معروضات المتحف يا أستاذ عادل، بعد كل ما رأيته من الآثار العظيمة في المتحف المصري ؟
- كل شيء. إنني لا أصدق ما أجد في القسم المصري في اللوفر، إن به أكثر مما قرأت عنه من قبل. يبدو أنهم يخشون أن نطالب بآثارنا التي ذهبت إليهم عن طريق السرقة.

- لا بد أنك تبالغ !

- كلا. إن باللوفر آثارًا لا يمكن لأحد أن يتصور كيف انتقلت إلى فرنسا من مصر. خذ مثلاً تمثال أبي الهول الجسيم الذي يرقد هناك.

- أو المسلة المصرية في الكونكورد. لقد مررت عليها هذا الصباح.

- وهناك تحف لا يدري بها أحد. إن أهم ما يشغلني الآن هو دراسة دائرة الأبراج التي كانت في سقف معبد دندرة.

- ولكنها موجودة في معبد دندرة؛ لقد رأيتها عند زيارتي للمعبد.

- إن ما رأيته هو صورة من الأصل، أما الأصل فهو هنا يا أستاذ سامح. ولقد نقله الفرنسيون، أو بمعنى أصح سرقوه في واحدة من أغرب المغامرات في تاريخ الآثار.

- إحكِ لنا، إحكِ.

قال محب ذلك وهو يلمح من طرف عينه أن أحد الشبان على منضدة طلبة الجامعة يحاول أن يتصنت على ما يقال.

- باختصار شديد، الموضوع يرجع إلى المنافسة الشديدة بين قنصليّ فرنسا وإنجلترا في مصر أيام محمد علي. دروفيتي وصولت. ويدخل فيه أيضًا واحد من جامعي الآثار هو الفرنسي سولنييه، الذي كلّف خبير في البناء هو "لي لوران" بالذهاب إلى صعيد مصر ونشر أحجار "الزودياك" من سقف معبد دندرة وإحضارها إلى فرنسا. وعمل الرجل أعمالاً أشبه بما يحدث في الروايات البوليسية كي ينجو من الرقابة الصارمة التي كان صولت وأعوانه

يفرضونها على كل من ينقب عن الآثار في مصر. ولكن "لي لوران" استطاع بدهائه ومكره أن يقوم بنشر أحجار السقف السميك وأن ينقله عبر النيل إلى القاهرة ثم إلى الإسكندرية، حيث شُحن بعد ذلك إلى مرسيليا كي يُستقبل هناك بوصفه كنزًا حضاريًا ثمينًا لا يقدَّر بمال. وقد استقر في اللوفر عام ١٩٠٧، وهو الآن زينة المتحف، وكان من أثمن ما أردتُ مشاهدته عند وصولي إلى هنا.

[وبعد ذلك، ذهب مصري إلى اللوفر خصيصًا لكي يرى الزودياك، ففوجئ بأن القسم المصري القديم في المتحف مغلق للتحسينات والتوسيعات. ولم يره. ثم تمَّ افتتاح المعرض المصري باللوفر في ديسمبر من نفس العام، بحضور كبار الشخصيات، بعد التجديدات التي جعلت من الجناح المصري هناك ثالث أكبر متحف من نوعه، بعد متحف القاهرة طبعًا، ومتحف تورين بإيطاليا. تورين! ولكن هذه قصة أخرى].

وتعجب محب وسامح من تلك المعلومات، ومن تحمس عادل الشديد لموضوعه. وواصلوا بعد ذلك حديثهم عن اللوفر وما به من تحف مصرية، بينما الطالب المصري الشاب يكاد يكون مستمعًا دائمًا لما يدور بينهم. وفجأة، وقف وتقدم إليهم وخاطب "عادل" قائلا:

- لو سمحت أقدر أناقش معاك التحفة المصرية اللي كنت بتتكلم عنها من شوية؟

- تحفة؟ أي تحفة؟

- التحفة دي. الأبراج. الدوزياك.

- تقصد الزودياك. طبعًا. تفضل معنا.

- لا، شكرًا، اعذرني. إنما لو ممكن أناقشك فيها لوحدنا. مش دلوقتي يعني. في أي وقت تكون حضرتك فاضي فيه.

- وهو كذلك. غدًا ربما في نفس هذا المقهى مساءً إن شاء الله.

- ماشي. أنا اسمي رستم.

وعاد الشاب إلى شلته ومنضدته، بينما كان الأصدقاء الثلاثة في غاية العجب من ذلك الطلب الغريب.

سرقة الزودياك

فى ربيع عام ١٨٢٠، جلس مسيو سباستيان سولنيير، النائب في البرلمان الفرنسي وأحد مشاهير جامعي الآثارالقديمة التي يبيعها بعد ذلك للدولة بربح قليل، يفكّر كيف يجد أثرًا مصريًا هامًا يفوق الآثار التي بدأت تترى على أوروبا على يد القناصل والمستكشفين الأوروبيين وبعد قراءات وأبحاث عديدة، وقع اختياره على اللوحة المجسمة للزودياك الفرعوني، أي الأبراج السماوية عند المصريين القدماء، الذي يشكّل سقفًا لمعبد دندرة في الأقصر، والذي يحتوي أيضًا على علامات رمزية توحي بأن المصريين في ذلك العصر عرفوا كروية الأرض منذ القدم. وبدا له إمكانية رفع ذلك السقف الحجري كاملاً برغم حجمه الكبير ووزنه الثقيل : ١٢ قدمًا في الطول، ٨ أقدام عرضًا، ٣ أقدام كثافة، بينما يزن ٦٠ طنًا !. وكان العالم الفرنسي "دينون" الذي صاحب حملة نابليون على مصر هو أول من أجرى رسمًا تفصيليًا لذلك الزودياك، لذلك فقد اعتبر مسيو سولبير أن هذا الأثر هو اكتشاف فرنسي خالص ويجب أن يكون ملكًا لفرنسا. وشارك صديقه المعماري "لي لوران" حماسه وتطوع بأن يقوم بنزع اللوحة الصخرية من معبد دندرة بالأقصر وإرسالها إلى فرنسا.

وقد جهّز "لي لوران" كل الأدوات المطلوبة لذلك العمل في بداية أكتوبر ١٨٢٠. ولسوء حظه، وجد عند وصوله إلى القاهرة أن

"دروفيتي" الشهير بجمع الآثار المصرية والاستيلاء عليها كان قد تمَّ تعيينه مرة ثانية قنصلا عامًا لفرنسا في مصر. وكان دروفيتي وغريمه القنصل الإنجليزي "هنري صولت" قد حصلا لنفسيهما على حق غير مكتوب في كل ما بقي من الآثار الفرعونية، وأصبحا يعملان على وضع العراقيل في وجه كل غريب يجرؤ على التعدي على ما اعتبراه "ممتلكاتهما". ولذلك عمد "لي لوران" إلى اللجوء إلى الحيلة، فأشاع أنه قد جاء إلى مصر لزيارة الأقصر، وهي المكان الذي يعمل فيه عادة الهواة لإجراء حفريات. وقد حصل على فرمان من الوالي يمنحه حرية التنقل، ثم استأجر قاربًا وغادر القاهرة مصطحبًا جنديًا من جنود الباشا، ومترجمًا لمعاونته في عمله. وفي طريقه إلى "دندرة"، استعان بكثير من العمال لدفع القارب إلى الأمام، ووصل إليها في منتصف الليل، حيث رحَّب بهم شيخ القرية. ومع أول خيط من الفجر، ذهب "لي لوران" ليستطلع المعبد الذي جاء بغرض نقل الزودياك منه.

وكان المعبد في ذلك الوقت قد غطته الأتربة تمامًا، ولكن "لي لوران" دخل إلى قاعة من قاعاته وتطلع إلى السقف...ووجد الزودياك سليمًا لم يمسه سوء، بيد أنه فوجئ بحجم الدائرة المهول الذي لم يطرأ على باله من قبل.ثم اكتشف أنه يحتاج إلى استخدام ثلاثة مناشير بدلا من منشار واحد لاستخلاص الدائرة الضخمة من السقف. وبعد أن استخدم بعض الديناميت الخفيف كيما يمهد لنفسه وللعاملين معه الطريق، بدأوا في العمل بهمة في عملية النشر في ثلاث مناطق في نفس الوقت. وقد عملت حرارة الجو والأتربة والجهد الشاق على

إصابة "لي لوران" بحمى أقعدته لعدة أيام، رفض أثناءها استدعاء أي طبيب حتى لا يلفت الأنظار إلى ما يفعله، واكتفى بما قدمه له فلاحو القرية القريبة من علاجهم الطبيعي البدائى. ولم يؤخر مرضه العمل، فقد استمر من جلَبه من العمال في عملية النشر حتى شفي من الحمى وانضم إليهم ثانية.

وحين تمت أعمال نشر الحجارة، رفعوا صخور الزودياك ووضعوها أعلى المعبد. واستغرق العمل حتى تلك المرحلة اثنين وعشرين يومًا. بيد أن نقل الصخور الزودياكية من مكانها إلى منطقة النيل حيث جهز "لي لوران" قاربًا كبيراً لنقلها فيه تمهيدًا لشحنها إلى فرنسا كان عملاً شاقًا هو الآخر، فقد ترك "لي لوران" القارب على مبعدة أربعة أميال من المعبد، إذ أنه لم يجد منطقة مناسبة لرسو القارب أقرب من تلك المسافة. وبدأ العمال في جر الصخور فوق زحافة خشبية ذات عجلات كانوا يستبدلونها من حين لآخر بعد أن تُستهلك. ولما لم يعد هناك مزيد منها، استخدم العمال العشرون آلة الرفع التي جلبها "لي لوران" معه لإكمال عملية الجر. وقد استغرقت مرحلة الوصول بالزودياك إلى القارب في النيل ستة عشر يومًا أخرى.

وكان النيل حين وصلوا في حالة جزْر، مما اضطر "لي لوران" إلى عمل ممر من التراب يصل ما بين القارب والرافعة التي تحمل صخور الزودياك. وفي أثناء التحميل، انزلقت الرافعة بما تحمل بقوة شديدة أطاحت بمن حولها من العمال وألقت بحملها في الطين الذي كان يفصل القارب عن الشاطئ. وقد ظهرت براعة العمال المصريين

الأقوياء وتفننهم عند ذلك، فقد تعاونوا معًا لرفع المحفة التي تحمل الزودياك بطرقهم الفريدة حتى أوصلوها إلى القارب.

وحين تهيأ "لي لوران" للإبحار، فوجئ بأخطر عائق صادفه منذ بدأ مشروعه، إذ رفض صاحب القارب التحرك به. وبعد البحث والتحري، تبين أن القنصل البريطاني في القاهرة "مستر صولت" قد علم بما يفعله "لي لوران"، فأوفد رجلاً من طرفه وعد صاحب القارب بدفع ألف قرش له إذا نجح في تعطيل الإبحار. وعند ذلك، عرض "لي لوران" على صاحب القارب أن يدفع له المبلغ نفسه في الحال، مما جعل الأخير يعتذر ويعلن طاعته للفرنسي؛ وسار القارب آخر الأمر في طريقه. وقبل أن يصل إلى محطته الأولى - القاهرة - يُفاجأ "لي لوران" بسفينة تقترب من قاربه وعليها أحد رجال القنصل البريطاني الذي يُخطر "لي لوران" أن معه أمرً من نائب الباشا يمنحه حق الحصول على الزودياك؛ فما كان من "لي لوران" إلا أن رفع عَلَم بلاده الفرنسي على القارب، وأعلنه أرضًا فرنسية يُحظر على أي شخص الصعود إليه، معلنًا أن لديه فرمانًا من محمد علي باشا نفسه بحق التنقيب عن الزودياك. وبعد عدة مناوشات، انسحب مندوب مستر صولت وواصل "لي لوران" طريقه. وقام القنصل البريطاني بمحاولة أخيرة فقابل الباشا وعرض عليه الأمر، وحين سأل محمد علي ما إذا كان لدى "لي لوران" فرمان منه بالبحث عن الزودياك وكان الرد بالإيجاب، أعلن الباشا أن الزودياك هو للفرنسي. وقد قيل آنذاك إن حاشية محمد علي باشا كانوا يتعجبون من اهتمام هؤلاء الأجانب

بمثل هذه القطع الحجرية بالغة القدم، والصراع عليها في حين أن هناك الكثير منها بما يكفي الجميع !.

وفى مقابل عدم الاهتمام ذاك، نجد الاحتفالات التي أقيمت في مرسيليا عند وصول الزودياك إليها، بعد أن ذهب "لي لوران" به إلى الإسكندرية ثم إلى الميناء الفرنسي. وقد تطلب الأمر تجهيز مقطورة خاصة لنقل الزودياك الثقيل إلى باريس. وهناك، توافد الجمهور على المكان العام الذي وضعوه فيه بادئ الأمر. وقد كلّف سولنييه الرسام والمعماري الفرنسي "فرانسوا جو" بعمل نسخ ليتوجراف للأثر العظيم، بيعت كلها من فورها بخمسة فرنكات للنسخة. وفي نفس العام، اقتنى الملك لويس الثامن عشر الزودياك بمبلغ ١٥٠ ألف فرنك - وهو مبلغ جسيم بحساب تلك الأيام - ثم استقر في المكتبة الأهلية حتى عام ١٩١٩ حين انتقل إلى اللوفر.*

---

* من كتاب " The Discovery of Egypt، تأليف لزلي جرينر، ١٩٦٦

(٣)

جلست كميلة على المقعد المريح الوثير ووضعت طبق الفستق على مسنده الخشبي وأخذت تتابع الأخبار في التليفزيون. كان الحدث الرئيسي هو استمرار أحداث العنف والقتل في أيرلندا الشمالية بين الكاثوليك والبروتستانت. وأفاضت التعليقات في شرح أصل المشكلة، وتتابعت صور الانفجارات والمظاهرات التي تدين هذا الفريق أو ذاك. وبعد عدد من الأنباء الفرنسية المحلية، أبرز التليفزيون ردود الفعل الغاضبة تجاه الغارة الإسرائيلية على مدرسة بحر البقر في مصر التي أسفرت عن مقتل عدد كبير من الأطفال الأبرياء. كان هذا الحادث العدواني البشع لا يزال يسيطر على المصريين في غربتهم، وقد أعدوا تظاهرة احتجاج سلمية في ميدان لا ريببليك، حيث لم تسمح لهم شرطة باريس بإقامتها في جانب من جوانب الشانزليزيه. كان موقف فرنسا عمومًا متعاطفًا مع مصر، ولكنها كانت محكومة أيضًا إلى حدٍّ ما بوجود عدد ضخم من الصهاينة الذين يتحكمون في كثير من المجالات الحيوية كالاقتصاد والوسائط الإعلامية والفنية... وكانت كميلة تنوي الاشتراك في تلك التظاهرة في الغد.

* * *

كانت كميلة شخصية فريدة، مرّت حياتها بكثير من الأحداث والتطورات التي حفرت آثارها في نفسيتها. كانت منذ صغرها فتاة متمردة على كل شيء، رفضت رغبة والديها ميسوري الحال في الدراسة بالكليات التي يدعونها كليات القمة؛ رغم حصولها على مجموع عالٍ في الثانوية العامة، وفضلت على ذلك أن تحيا حياتها بالطريقة التي تريدها والتي تمكنها من إطلاق العنان لأحاسيسها الخلاَّقة. كانت تعشق الفن، والحرية، والحرية الفنية؛ وتمضي وقتها في قراءات ومطالعات أدبية وفنية. واكتشفت منذ وقت مبكر موهبتها في الرسم، فنشأ صراعٌ مريرٌ في داخلها بين أي التخصصات تنحو في دراستها: المسرح الذي أغرمت به، أم الرسم الذي اعتبرته - مع الموسيقى - أرقى أنواع الفنون "الخالصة". كانت تقرأ عن حيوات الفنانين المشهورين - فان جوخ ومونيه وتولوز لوتريك وموديلياني - فترى أن هذه هي الحياة الجديرة بالإنسان، رغم كل الشقاء والألم والنهايات المريرة التي يلقاها معظم الفنانين الذين يعيشون حياتهم بعمق، لا الرسامين فحسب، بل وأيضًا الكُتَّاب والأدباء والمفكرون: نيتشة، نوفاليس، لوتريامون....

وتمثلت في ذاكرتها مشاكلها مع والديها وهي في القاهرة، وكيف أن تمردها على رغبة والديها في التحاقها بكلية الهندسة أو الطب، أو العلوم السياسية، كان مجرد بداية لتمردها على القيم والتقاليد والأعراف السائدة في المجتمع من حولها، وخاصة لدى الطبقة البرجوازية العليا التي تعبد المظاهر الفارغة. عادت إلى ذاكرتها

سنواتها الأربع في الزمالك، في كلية الفنون الجميلة، والثورة النفسية التي اعتملت في أعماقها حين تحتَّم عليها دراسة الجسم البشري لإبداع حركاته على الورق وعلى قماش الرسم. لقد أحسّت إحساسًا غريبًا لدى رؤيتها أجساد الموديلات العارية، وانقضى وقتٌ قبل أن تتجرد من الإحساس بالخجل وتنظر إلى الجسد الإنساني بوصفه رمزًا للجمال في أقصى درجاته، ورمزًا للخلق والإبداع. ولا تزال تذكر المعاناة التي لاقتها في سبيل نقل هذه النماذج على اللوحات البيضاء.

وساعدها مدرسوها وأساتذتها في الأخذ بيدها في ذلك الطريق الوعر: طريق الفن. وتراوحت علاقاتها بأساتذتها ما بين الاهتمام بتقدمها الفني، وبين العلاقة السطحية التي تربط الطالب بأستاذه. ولكن علاقتها بأحد هؤلاء الأساتذه في الكلية هي التي خطَّت آثارها العميقة في روحها وحياتها، وكان أول رجل ارتبطت به. كان "جان آرتير" أستاذًا زائرًا من فرنسا، أحبّ مصر وجو مصر، فرغب في العمل بها، واشترك في البرنامج الفرنسي الذي يتيح للفرنسيين الشبان قضاء فترة تجنيدهم الإجباري في العمل في الدول النامية، ولمَّا كان قد تمَّ ترشيحه للعمل في مصر فقد وافق على الفور، بل ومدَّد عمله فيها بعد انتهاء المدة المقررة، فتزامن بقاؤه في القاهرة مع السنوات الأربع التي أمضتها كميلة في الكلية. ولم تُخف كميلة إعجابها بجان، حتى عرف به الجميع. أما شعور جان ناحيتها فكان شعورًا بالصداقة الرومانسية، إن صح ذلك القول. وأصبحت كميلة هي مرشدة جان ودليله إلى القاهرة، تزور معه آثارها وأحياءها، وتعرّفه منها ما كان

يجهل، وتطلعه على ما يجب أن يعرف. وفي المقابل، بذل جان لكميلة من معلوماته الفنية وإرشاداته ما جعلها تركز قراءاتها ودراساتها على ما هو مهم وأساسي. والأهم أنها قد أجادت الفرنسية من كثرة حديثها معه، فهو لم يكن يريد من العربية إلا القليل الذي يمكّنه من التعامل مع الناس. وكانت كميلة تزوره بلا حرج في شقته في وسط البلد. وكانت شقة صغيرة، من حجرة نوم وصالون ومطبخ وحمام، مؤثثة على الطريقة الأوروبية. وكان مرتب جان، على قلته بالمقياس الأوروبي، يسمح له بالعيش في بحبوحة في قاهرة أوائل الستينيات. كان ينفق على راحته على نفسه وأصدقائه وزواره، ويقوم بسفريات عدة إلى المناطق السياحية في مصر؛ وخاصة الصعيد؛ لرؤية الآثار ودراستها، وكذلك سفريات لزيارة أهله في فرنسا. وطبعًا، تطورت علاقة جان بكميلة، بعد كل هذا التآلف معه. وهي لا تنسى أول قبلة بينهما، في شقته، بعد أن كان يتصفح معها مجلدًا عن لوحات عصر النهضة في إيطاليا، حين نحّى الكتاب جانبًا وتناولها بين ذراعيه يجذبها نحوه في دعة، فلمّا لم تُبدِ ممانعة، ذاب في أحضانها وذابت في أحضانه، بينما شفتاهما تلتهمان بعضهما البعض. ومرّ وقت لم تتجاوز العلاقة هذا الحد، ولكن... كان لا بد أن يتطور الأمر شيئًا فشيئًا إلى النهاية الطبيعية. وكيلا تقع التبعة على أحد من الطرفين، لا بد من النظر إلى أن أفكار كميلة التحررية هي المسؤولة عن تطور علاقتهما إلى تلك النهاية الطبيعية. ذلك أن أخبار صداقتها بجان وصلت إلى أسرتها، التي عارضتها بشدة، وأخذت الأم تنصحها بعدم التمادي في

تلك الصداقة حرصًا على التقاليد، ولكن كميلة كانت تهزأ بهذه الآراء وتقول لأمها إنها حرة تفعل ما تشاء. وحين تطور النقاش مرة إلى موضوع العذرية وجوهرية ذلك في الحياة الأسرية المصرية بخلاف رأى الغربيين مثل جان، فاجأت كميلة أمها بقولها إن ذلك لا يفيد، إذ أنها لم تعد بعد عذراء !... ولم يكن ذلك صحيحًا آنذاك، ولكنها افتعلت تلك الفرية حتى تضع أمها أمام الأمر الواقع فتضع حدًّا للمناقشات العقيمة معها. وطبعًا انهارت الأم، ولكنها طوت حزنها ولم تذكر شيئًا للأب، وانتهى بها الأمر إلى رفع يدها عن كميلة.

وفعلت تلك الحادثة فعل السحر في حياة كميلة الشخصية؛ إذ أن انطواء الأم على نفسها الذي بدا وكأنها قد تجاهلت الأمر تمامًا قد وضع كميلة في مواجهة مع نفسها: هل تقدم على ما كانت تعتزمه أم لا ؟ كانت تنظر إلى العذرية باعتبارها أقسى صفات العبودية أمام المرأة، وكانت ترى أن هذه العذرية هي فحسب من حق من تحبه حُبًا صادقًا خالصًا، وكانت تجد ذلك الحب مجسّدًا في شخص جان، وهي قد عقدت العزم منذ زمن على أن تهبه نفسها.

كان يومًا حارًا من أيام شهر يونية في السنة الثالثة من الكلية. وكان جان يعد لسفرته السنوية إلى فرنسا وينهى آخر أعمال الامتحانات في الكلية. وكانت كميلة تشعر بالحرج من لقائه في تلك الأيام بالذات، حيث أنها لا تريد أن يفسَر أحد علاقتها به بأنها تسعى إلى الحصول على أية امتيازات خاصة في الامتحانات. ولكن كان

يساعدها في ذلك الأمر ما عُرف عنها من تميز وتفوق في دراستها بصفة عامة، حتى أنها لا تحتاج إلى عون في ذلك الصدد.

وكانت تشعر إلى جانب ميلها النفسي إلى جان، ميلاً جسديًا كذلك، ولهذا فهي لا تنسى ذلك الأصيل الذي كان يحتضنها فيه وهما يستمعان معًا إلى موسيقى مالر الذي عرّفها هو به. وتمادت هي في أحضانه، حتى أن نظراته تطلعت إليها في دهشة، فقالت له عيناها ما لا يمكن أن تصرِح به الشفاه. كانت تود أن تذكر دخولها إلى عالم الحياة مرتبطًا بجان، بعد أن قرأت ان أول من يمتلك الفتاة يطبعها بعد ذلك بطابعه الذي لا ينتهي طوال حياتها. وتساءلت عينا جان بما كان يريد أن يقوله لها: هل هي على ثقة مما تريد حقًا ؟ وأجابته عيناها دون كلام أيضًا: كل الثقة... وهكذا كان. وكان أصيلاً لا تنساه كميلة أبدًا، فرغم علمها بأن علاقتها بجان لن تسفر عن زواج أو حتى دوام، لأنه كان يعبِّر لها دائمًا عن اعتزامه البقاء دون زواج للتفرغ لفنه ودراساته، فهي لم تفكِّر في ذلك عند اتخاذ قرارها، بل فكرّت وحسب أنها تريد أن تدخل إلى عالم الحس الروحي والنشوة الصوفية على يد جان !.

وكان لسفر كميلة إلى باريس حكاية أخرى.. فبعد تخرجها، كان والداها يأملان أن تقبل العمل الذي اقترحاه عليها في شركة كبرى بمرتب مغرٍ؛ كما يقال في إعلانات الصحف؛ وإن لم يكن في تخصصها. ولما تحججت برغبتها في العمل في الفن، عرض والدها التوسط لتعيينها في متحف أو أحد جاليرات اللوحات في القاهرة ذاتها.. بل

وعرض عليها أن يزودها بأستوديو خاص لها تنتج فيه لوحاتها. ولكن السفر كان هو الهدف الذي وضعته نصب العين منذ العامين الأخيرين من دراستها. ذلك أنها رأت أن دراستها لم تقدِّم لها إلا أقل القليل من الزاد الفني والحرفي، ولا بد من تكملتها في مهبط من مهابط الفن المعروفة: إيطاليا، فرنسا، إسبانيا، هولندا... والإطلاع على النماذج الفنية العليا،مع دراسة تكميلية للحصول على درجة الأستاذية في الرسم أو النحت أو غير ذلك من التخصصات. وقد استقر رأيها على فرنسا، رغم غلاء المعيشة فيها، نظرًا لتأثير جان عليها، ومعرفتها بالفرنسية. ولم يمثِّل التمويل مشكلة أمامها، حيث أن أباها قد أذعن لعنادها ووعد بالعمل على إيصال النقود الكافية لها. وكان سفرها في صيف عام ١٩٦٨، والازمة السياسية والاقتصادية والعمرانية تأخذ بخناق مصر. كان قد مضى عام على كارثة ٦٧، وبدأ المجتمع في التحول تدريجيًا وفي بطء إلى شيء آخر. كانت البلد ما تزال تسير بقوة الدفع الماضية، وإن جدت أشياء لم تكن تخطر على البال.

وقد بهرتها الحياة في باريس ووجدتها كما كانت تتصورها تمامًا. وأخذت تكتشف المدينة حيًا حيًا، بل وشارعًا شارعًا. وطالما شهدتها باريس وهي متقطعة الأنفاس من المشي طوال النهار، ومن احتواء مشاهد الجمال التي تراها في الأركان، وفي فترينات المحلات، وفي كل شيء حولها. وبدأت تتعود على اللغة بلهجة أهلها، وعززتها بالاستماع الطويل إلى الراديو والتلفيزيون.

* * *

وأخذت كميلة تفكّر كعادتها فيما وقع لها من أحداث في يومها، فتماثل لها وجه محب ولقاؤها معه، إنه شابٌ مثقفٌ ومؤدب. ليس كبعض المصريين ممن تعرفهم، أولئك الذين يتغامزون عليها ويلمحون إلى علاقتها برامي، وهي أعلم طبعًا بما بينها وبين رامي، لقد عاونها معاونة مخلصة حتى استطاعت أن تقف على قدميها في الغربة، وأن تستقل بحياتها في هذا الأستوديو الجميل، الذي تتخذ منه مسكنًا ومحترفًا فنيًا لرسوماتها في نفس الوقت؛ كما يفعل الجميع في أوائل خطواتهم الفنية. وكان جميع أفراد الجالية المصرية من المبعوثين والعاملين يعتقدون أن ثمة علاقة تربط بين رامي وكميلة، وكانت هي تضحك حين يصل إلى سمعها مثل هذه الإشاعات، وتشفق على رامي من آثارها، وإن كان من طبيعة الإشاعات من هذا القبيل أن تجبن عند ملاقاة أي شخص ذي مسؤولية، فكان الناس جميعًا يتعاملون مع رامي بكل احترام وينسون ما يسمعون عنه. والحق أن "رامي" بريء تمامًا من مثل هذه العلاقة، وأما مساعدته لكميلة إنما جاءت من باب الصداقة ليس غير، ومن أنه رأى فيها صورة لأخته التي توفيت منذ مدة في حادث في مصر، وهذا هو ما قرّبه أساسًا منها. وكان أيضًا معجبًا بها بوصفها فتاة مكافحة فنانة يراها مثالاً للفتاة المصرية العصرية التي تشق طريقها غير آبهة للتقاليد أو القيل والقال.. وكان يعرف وهي تعرف أن مساعدته لها لم يكن وراءها أي غرض آخر، وهي لم تكن مساعدة مالية في المقام الأول بقدر ما كانت دعمًا معنويًا، ولم تكن كميلة في حاجة إلى المال،

فكانت تأتيها دومًا مبالغ من أسرتها من فائض مبيعات تجاراتها في خارج مصر، كما أنها أحرزت نجاحًا في تسويق لوحاتها وتستعد لتنظيم معرضها الأول في باريس.

(٤)

- لو سئلتَ عن كتاب واحد جعل منك ما هو أنت عليه الآن، فماذا تختار ؟

- " ألف ليلة وليلة ".

سلمان رشدي

٢٠١٥

هكذا هكذا وإلا فلا لا.... صبّحك الله بالخير يا أبا الطيب. ها هي المخطوطات يحملها لي الموظف في هدوء.

- Voila Monsieur.

- Merci Bien.

وأتناولها بحرص. إنها ليست المرة الأولى التي أفحصها فيها، منذ أن جئت إلى باريس لهذه المهمة. ها هو محب في الزاوية البعيدة من القاعة الجميلة، وأمامه لا شك مخطوطاته الخاصة بدراسته ليدرسها ويفحصها، إنه محظوظٌ إذ يدرس التاريخ وليس الأدب مثلي، فمخطوطات التاريخ محدودة ومعروفة، أما الأدب، وخاصة موضوعي، فلا حدود له ولا قرار. غير إني محظوظ أيضًا إذ أهيم بدراستي وأبحاثي وقراءاتي، وحب أساتذتي لي وإرشاد أستاذتي الدكتورة التي تعلمتُ منها الكثير وكانت هي دافعي ومرشدي إلى ما أقوم به الآن. صحيح أنها هي رائدة هذا الميدان، بتوجيه من أستاذها العميد، ولكن ها هي تعيد الدورة فتصبح استاذة لي في نفس الموضوع.

مخطوطات أرقام ٣٦٠٩ إلى ٣٦١١، و١٤٩١ ألف، و٣٥٦. لقد أصبحتُ الآن أليفًا بهذه الأرقام بعد كل هذا الوقت. ليس بالكثير رغم ذلك؛ ستة شهور. ولكن، يا لها من شهور تغيرت فيها حياتي كلها. إن أمامي مهمة محددة لا بد أن أنجزها في أقرب فترة ممكنة وأعود إلى وطني. ولكن، هل يا ترى أنجح في هذا، مع كل ما أرى هنا من إغراءات الحياة والثقافة والجمال؟ بعد أحداث ٦٧ الفاجعة قررت أن أفضل وسيلة هي الخروج من مصر لدراسة الدكتوراة أو على الأقل جمع المعلومات من مكتبات الخارج ثم مناقشة الدرجة في مصر.

ولكن مهلاً مهلاً، فحياتي مع ألف ليلة والأدب ليست إلا وجهًا واحدًا من العملة، أما الوجه الثاني فهو أكثر درامية، وجه المجاهد السياسي من أجل مبادئه. فمنذ دراستي الثانوية، وقعت على كتب الاشتراكية والشيوعية، وانضممت إلى حزب منها سرّا منذ أيام الملكية، وطوردت مع أصدقائي في الحزب. وعند قيام ثورة ١٩٥٢، استبشرنا خيرا بحرية الاعتقاد السياسي، وتزامن ذلك مع تخرجي من الجامعة بامتياز، فعينت معيدًا، وظللتُ أحضر لقاءات ومحاضرات الحزب.. غير أن انقلاب مارس ٥٤ - وهو الانقلاب ضد الديمقراطية - جلب علينا المطاردة والنقمة، ففُصلت من عملي، وذقت مرارة المعتقلات، وبقيتُ عاطلاً طريدًا، وأقمتُ أوْدي بالدروس الخصوصية وأعمال الترجمة. وظننت أن تاريخي الأكاديمي قد انتهى، ولكن أساتذتي ممن يعرفون قدراتي أمدوا لي يدَّ العون ثانية. وكنت قد قضيت الوقت في دراسة لدرجة الماجستير من معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة التابع للجامعة العربية، لذلك حين عدت للكلية كان بوسعى التقدم لدراسة الدكتوراة، وكنت أعلم أن أساتذتي قد بذلوا الجهود لدى سلطات الأمن للسماح لي بالعودة للجامعة، بضمانتهم لي، لذلك التزمت الحرص السياسي بعد ذلك، ولم أعد أعبِّر عن ميولى اليسارية إلا مع من أثق، وإلا بعد أن سافرت إلى باريس، فقد دبروا لي منحة دراسية لإتمام الرسالة في فرنسا. وموضوعي...؟ آه من موضوعي الذي أبحث فيه والذي سيطر عليّ سيطرة كاملة : ألف ليلة وليلة، بين مخطوطاتها المختلفة. كنت أفضل أن أبحث فقط في أثر ألف ليلة في

الآداب الغربية، إلا أن ذلك الموضوع لم يكن يصلح لدراسة أكاديمية صرف، فوجهتني الأستاذة، المتخصصة أصلاً في ذلك الموضوع، نحو دراسة المخطوطات. وها أنا في صالة المخطوطات، ومعي، ربما للمرة الثلاثين، المخطوطات أرقام ٣٦٠٩ إلى ٣٦١١، و١٤٩١ ألف، و٣٥٦.

ما زلتُ أذكر أول معرفة لي بألف ليلة. من أفواه القصاص، ومن برامج الإذاعة. ثم اشتريت مجموعة كاملة من أربعة مجلدات من على سور الأزبكية بعد انتقالنا إلى القاهرة عام ١٩٥٥، وقد تزامن ذلك مع ثورة الأحاسيس الحسية في نفسي وجسدي، وانطبعت مع الصور العجيبة والعبارات الأعجب التي وجدتها في تلك القصص. ولكن ذلك لم يحجب الأثر الكُلِّي الذي تخلِّفه ألف ليلة في نفس قارئها: الدهشة والإمتاع، وحفز الخيال كيما يصل إلى أقصى درجاته واحتمالاته.

القاهرة، القاهرة... أين أنتِ الآن مني ياقاهرتي العزيزة. والأصدقاء والشلة، ومن سافر ومن بقى. وكنت أنت من أوائل المسافرين، بعد سفر عدلي وسامر وعبد العزيز للدراسة في إنجلترا وأمريكا. وأنت تتراسل مع عدلي الذي يدرس في جامعة لندن، ولا بد له أن يزورك في باريس، كما لا بد لك أن تزوره في إنجلترا. على الأقل سيتحتم عليك الإطلاع على بعض المخطوطات الألفليلية في مكتبة المتحف البريطاني. وماذا عن طبعة برسلاو ؟ ولا بد من قراءة ترجمة بيرتون ولين وتعليقاتهما على النص. إن أمامي عملاً شاقًا وطويلاً من القراءة والبحث. لا بد أن أغرق في ذلك العمل، على ألا أنسى ما

عاهدت نفسي عليه من الإحاطة بالجديد في الفن والأدب والموسيقى على نحو عام، منتهزًا فرصة وجودي في هذا المركز الثقافي الإشعاعي الهام.

ها أنا أفتح المخطوط ٣٦٠٩، وهو مصور عن الأصل الذي يحتفظون به في الدار داخل فترينة زجاجية. هو أصل ألف ليلة، مخطوط جالان الشهير الذي بدأ الحكاية كلها. وقد لعب جالان دورًا كبيراً في اكتشاف ألف ليلة وليلة، إذ كان هو أول من ترجم مخطوطها العربي ونشره بالفرنسية ما بين عامي ١٧٠٤ و١٧١٧. وتارخ هذا الرجل غريب، فهو قد درس في الكلية الملكية والسوربون، وصحب الماركيز نوانتل عام ١٦٧٠ في بعثته الفرنسية إلى سلطان تركيا العثمانية، حيث مكث خمس سنوات في دار الخلافة تعلم فيها التركية والعربية واليونانية، مما مكنه بعد عودته إلى باريس من العمل مساعدًا لبارتليمي دي هربيلو في مشروعه الكبير المعنون "المكتبة الشرقية" وأكمل إصداره وحده عام ١٦٩٧ بعد وفاة هربيلو. ولكن العمل الذي أضفى شهرة خاصة على جالان هو ترجمته لألف ليلة. ففي بدايات التسعينيات من القرن السابع عسر، تحصل جالان على مخطوطة رحلات السندباد فنشر ترجمتها عام ١٧٠١، وحفزه نجاحها على البدء في ترجمة المخطوط كله. وكان قد أرسل إلى الشام يطلب من أصدقاء له هناك في طلب أي مخطوط متوافر لألف ليلة، فجاءه أصل ذلك الذي في يدي الآن، فترجمه إلى الفرنسية وصدر المجلدان الأول والثانى منه عام ١٧٠٤، بينما صدر الجزء الثاني عشر والأخير عام

١٧١٧. والمخطوط الذي استخدمه جالان يتكون من ثلاثة أو أربعة مجلدات ويرجع تاريخه إلى القرن ١٤ أو ١٥. وقد بقي من تلك المجلدات المخطوطة ثلاثة، صورها هي التي بين يدي الآن أبحث فيها، وهي أقدم مخطوطات معروفة لليالي، باستثناء ورقة واحدة أخرى يرجع تاريخها إلى القرن العاشر.

ولكن جالان لا يمكن أن يكون قد اعتمد في ترجمته على هذا المخطوط الثلاثي وحده، إذ أن هناك الكثير من الاختلافات بين المخطوط وبين الترجمة التي نشرها جالان، مثل بداية القصة. إن هذه الاختلافات بين مخطوطات ألف ليلة المتعددة هي التي دفعتني إلى التفكير في مشروع كبير أخذ يتبلور في ذهني على فترات متباعدة، وهو إصدار طبعة جديدة من ألف ليلة بالعربية تتضمن كل القصص التي وردت في مختلف المخطوطات، مع إدراج كل قصة في الليلة المناسبة لها. هذا عمل تحريري في المقام الأول، كما أنه يبعدني عن رسالتي الأصلية وهي إجراء المقارنات بين مختلف المخطوطات. هو في الحقيقة مكمل للرسالة وامتداد لها، ولكني أخشى أن يسبقني أحد إلى تلك الفكرة. كثير من العرب يدرسون الموضوع، ولذلك فإني أفكِّر الآن في تحرير خطاب إلى الأستاذة المشرفة بالفكرة. وأنا هنا في الخارج في موضع مناسب يسمح لي بالإطلاع على المخطوطات الأصلية الموجودة في أوروبا والبدء في تحرير مشروع المجموعة الكاملة كما أتصورها. لا أنكر أن الحافز النشري بل والمادي لهما دخلٌ في فكرتي. ولكن، ما المانع ؟ وما المانع أن أبقى في فرنسا سنوات وسنوات بدلاً

من السنتين اللتين تقتصر عليهما بعثتي لإعداد مادة الرسالة ؟ ستحملني دراستي إلى إنجلترا وهولندا، ثم فترة في دار الكتب بالقاهرة. وقد يشمل ذلك الهند أيضًا للبحث عن طبعتي كلكتا. ومن حسن الحظ أنني خريج قسم اللغة الإنجليزية، فالكثير من المراجع والترجمات هي بتلك اللغة، خاصةً ترجمتي لين وريتشارد بيرتون وما فيهما من هوامش وتعليقات. سيتطلب ذلك عُمراً، فما العمل ؟

(٥)

"... إني أؤمن بأبولون...أؤمن بأبولون إله الفن الذي عفّرتُ جبيني أعواما في تراب هيكله...إنه يعلم كم جاهدتُ من أجله، وكم كافحت وناضلت وكددت... باسمه أخوض المعركة الكبرى وأنازل كل مجتمع وكل حياة وكل عقبة تحول بيني وبين فني الذي منحته زهرة أيامي التي لن تعود..."

توفيق الحكيم

جلس رامي إلى مكتبه وبصره شارد من النافذة، يتطلع إلى قمة برج إيفل على البعد، وهو يفكِّر حينًا، ثم يلتفت حينًا آخر إلى أوراق أمامه، يقرأ فيها طورًا ثم يؤشِّر على بعضها طورًا آخر.. كانت هذه هي طريقته في العمل، ما بين أفكاره والعمل شبه الروتيني الذي يؤديه في المكتب. كان يلتقي كثيراً بالدارسين والمبعوثين المصريين المتواجدين في فرنسا للدراسة؛ سواء على نفقة الدولة أو على بعثات أو على نفقتهم الخاصة.

ودخل عليه ساعي المكتب بشاي الصباح، بينما كان يطالع "الموند" بعجلة مكتفياً بقراءة العناوين، على أمل أن يعود إليها في المساء في شقته. كان رامي في الثلاثين من عمره، وقد نجح في شغل هذه الوظيفة عن طريق امتحان أجرِي في وزارته لشغل المناصب الشاغرة في المكاتب والمراكز الثقافية في خارج مصر، ورغم أنه قد حصل على مركز متقدم في الامتحان، فقد تعين عليه الاستعانة برئيسه الكبير في العمل حتى يرسلونه إلى مكان مناسب؛ وأدَّى ذلك إلى اختياره لمكتب باريس، ولولا ذلك لكان قد ذهب إلى فريتاون. ومع أنه كان يفضِّل الذهاب إلى مكتب لندن حتى يستطيع إكمال دراسته بالحصول على الدكتوراه، لم يتحقق ذلك لوجود عدد كبير من الراغبين في السفر إلى إنجلترا. وقد شغل مناصب المستشارين الثقافيين أساتذة الجامعات، ومن ثم فقد تمَّ إرسال الناجحين مثلة بوصفهم الملحق الثقافي، وكان ذلك وضعًا غريبًا، لأن معظم العمل الفعلي كان يقع على عاتقهم، إذ كان المستشارون مشغولين بأعمال البحوث

والدراسات الخاصة بهم، وليست لهم الخبرة اللازمة للأعمال الإدارية، عدا قلة منهم. ولذلك كانت أعمال البعثات كلها واقعة على كاهل رامي وزميلين له من الملحقين الثقافيين، يعاونهم في ذلك مجموعة من الشباب المنتقين من المصريين الموجودين في باريس، ومنهم زوجات المبعوثين اللآئي لديهن مهارات في السكرتارية والحسابات، بل ومنهم مبعوثون، تمَّ اختيارهم لمساعدتهم في سُبل المعيشة في تلك المدينة باهظة التكاليف. وكان رامي يشارك في "الطلبية" الشهرية من المشروبات والسجائر والسيجار، التي ترد إليهم بأرخص الأسعار بوصفهم من الدبلوماسيين بالسفارة ومعفيين من الضرائب. وكان رامي يحظى بعلاقات ممتازة مع رؤسائه، سواء المستشار أو أعضاء السفارة الآخرين، ومع الطلاب من كل المستويات. وكان ينجح في التوسط لدى المستشار الثقافي لتعيين أحد الطلاب أو الطالبات لفترة في المكتب أو المركز الثقافي، للمساعدة في زيادة مواردهم، في الوقت الذي يعرف رامي فيه بحاجتهم الشديدة إلى المال. حالة واحدة شذت عن هذه القاعدة، وهي حالة كميلة. كان رامي قد أعجب بكميلة منذ أول يوم رآها فيه. كان أول الأمر إعجابًا بشجاعتها التي خوّلت لها مفارقة أسرتها والرحيل عن بلدها والحضور وحيدة إلى هذا العالم الزاخر. وكان يدرك ما يقال عن وجود علاقة بينهما، ولكنه كان يضحك من تلك الأقاويل، ويعلم تمامًا أن ما بينهما إعجابًا متبادلاً، وتمازجًا فنيًا، وأيضًا بعض المناوشات الخفيفة التي لا بد وأن تقع بين اثنين مثلهما. بيد أنه كلن يعلم أنها مرتاحة ماديًا بما كانت

أسرتها تمدها به من نفقات، وبما كانت تحصل عليه من حصيلة بيع لوحات لها للأفراد والجاليريهات. وكانت أيضًا قد أفضت له بأنها على علاقة بشاب لبناني تأمل أن تدخله معها إلى عالم الفن.

- محمود بيه عاوزك يا أستاذ رامي.

وخرج رامي لمقابلة المستشار الثقافي الذي يعمل تحت رئاسته. وكان المكتب كبيراً بحجم العمل في باريس، وأيضًا بحجم الوساطات التي تدفع بأصحابها إلى مكان رئيسي كالعاصمة الفرنسية. وكان هناك مستشار وثلاثة ملحقين ثقافيين، بالإضافة إلى اثنين من السكرتيرين، مرسلين كلهم من مصر. وكانت علاقته حسنة بالجميع، نظرًا لما عُرف عنه من الاهتمام بعمله وتقديم المساعدة للجميع، إضافة إلى ثقافته الغزيرة وشهرته بين الجميع بكتاباته التي ينشرها بين الحين والحين في الصحف والمجلات العربية.

وحين ذهب لمقابلة المستشار، عرض عليه أوراق بعض المبعوثين، وبعض الخطابات المرسلة إلى إدارة البعثات. ووجد لديه الأستاذ فؤاد سكرتير المركز الثقافي المصري، وكانا يتناقشان بحدة في إحدى المسائل، ولكنهما توقفا إلى حين انتهاء رامي من أوراقه. ثم دقَّ التليفون، وتحدث المستشار طويلاً، فيما يبدو مع شركة لتوريد السيارات، وتهلل وجهه بعدها وهو يقول لهما دون أن يشعر:

- الحمد لله، المرسيدس في الطريق.

وضحك هو والأستاذ فؤاد. وشاركهما رامي في الضحك وبارك للمستشار وخرج عائدًا إلى مكتبه... كان ذلك غريبًا، هذا المستشار

المعروف بالتقدمية، بل والاشتراكية المتطرفة، ونصرة الفقراء والمعدمين، ها هو هنا يعيش في بحبوحة ككبار الرأسماليين، وكان هذا من حقه، لولا ما كان يكتبه في مصر من ضرورة التقشف لكل الناس، وضرورة أن يعيش الكل سواسية دون مظاهر خادعة، ودون إسراف. وسرّه أن وجد هذا التناقض في شخصية المستشار، فقد كان يراهن بينه وبين نفسه أن كل هؤلاء القوم يتخذون فلسفتهم وعقائدهم الفكرية مطية فحسب، ثم يعيشون كما يحلو لهم، عيشة برجوازية محض، يضارعون بها كبار الأثرياء والرأسماليين... وعاد إلى ذاكرته ذلك الخبر الذي نشرته الأهرام ذات يوم عن سرقة شقة أحد كبار الكُتّاب الاشتراكيين، ففوجئ الناس بالثروة الرهيبة التي كدَّسها ذلك الكاتب "الاشتراكي"، والتي لم تنكشف إلا بعد سرقتها، ومن بينها التحف والحلي والمجوهرات، علاوة على ثروة من العملات الصعبة... وكانت فضيحة !.

وجلس رامي يفكِّر في من حوله من المصريين الذين جاءوا من مصر للعمل بمكتب البعثات وبالمركز الثقافي، كان معظمهم من المرسلين بالواسطة، عدا ذلك الملحق الشاب المتدين، بل شديد التدين إلى درجة أنه كان يرفض التوقيع على كشوفات "طلبية" المكتب من الأشياء المعفاة من الجمارك، لأنها تحتوي على خمور.. وقد ناقشه رامي في ذلك كثيرًا، ولكنه لم يكن ليغيِّر موقفه تحت أي ظرف من الظروف. وكان الملحق الثالث مكلفًا بالإشراف على المركز الثقافي المصري بالحي اللاتيني.

وتعجب رامي من اختلاف الموقف هنا في الخارج بالنسبة لهؤلاء المصريين الذين يعيشون بعيدًا عن معاناة الناس في مصر، ويقرأون عن مأساة مدرسة بحر البقر، مثلاً، فكأنهم يقرأون عن قصف أمريكا لفيتنام، بينما كثرة المصريين، ومن بينهم رامي، تتقطع قلوبهم على مأساة وطنهم وعلى مواطنيهم وأقربائهم هناك.

كان عمل رامي في المكتب مجرد "مورد رزق" كما يقول عنه، ولكنه شيء ضروري وأساسي، وإلا ما كان له أن يعيش حياته كما يعيشها هنا الآن. ولكن حياته الحقَّة كانت بعيدًا عن الوظيفة الروتينية وعن المكتب بل والسفارة كلها. كانت حياته تتلخص في محاولة تحصيل المعرفة بكل أشكالها قدر المستطاع، والإنتاج الفني حين يتيسر ذلك. كان قد خلع عن كاهله ذلك الحمل الثقيل الذي أصبح أمل كل شاب تخرج من الجامعة، وهو الحصول على الماجستير ثم الدكتوراه، لم يكن يهم إذا كان الشخص مؤهلاً لاستكمال دراسته العليا أم لا، أو صالحًا للسير على طريق البحث العلمي أم لا، ولكن المهم هو المركز الاجتماعي الذي يصاحب لقب الدكتوراه. وإذا بالجميع يلتحقون بالكليات لإكمال دراساتهم، وإذا بهذا المجال يرى أناسًا لا يعرفون أساسيات البحث العلمي الحقيقي، وإذا بنا نرى رسائل وأبحاثًا لا تمُت للمجال العلمي بصلة، بل هي قشور سطحية وتجميعات وسرقات من هنا ومن هناك تُلصق بعضها ببعض على هيئة رسالة، وما هي بالرسالة في شيء. كان رامي قد انتهى إلى قرار بألا يلعب هذه اللعبة، فبعد أن ترك مصر وسافر إلى باريس، حاول

أن يسجِّل نفسه لدراسة الماجستير، بل وحدَّد الموضوع وكل شيء. ولكنه في لحظة من لحظات "ساتوري"، الاستشراف الرؤيوي، رأى أنه سيحصر نفسه في مجال واحد يعكف عليه سنوات، تاركًا عشرات الموضوعات التي تشغل باله ويود النهل منها، وعشرات الروايات والكتب التي يود قراءتها بل ودراستها لنفسه، ناهيك بالرحلات التي يود القيام بها، وزيارات المتاحف والآثار التي كان يحلم بها.

أما عن علاقاته بالفتيات فقد كانت محدودة بالضرورة، بعد تجربة حب في مصر انتهت إلى لا شيء، وخرج بها مع فتاته إلى حد تصفيتها، ولم تعد تترك وراءها إلا آثارًا باهتة تتردد في عواطفه بين الحين والحين. وهو الآن يصادق "ماريسول"، وهي فتاة إسبانية تعرّف عليها في معهد تدريس اللغة الإنجليزية في باريس، وخرجا معًا مراتٍ عديدة، قبل أن تتطور علاقتهما فتزوره في شقته الصغيرة في أيام الآحاد.. وكانت هي تعيش مع زميلة لها في شقة صغيرة أيضًا، بعد أن تركت أسرتها التي هاجرت إلى فرنسا بعد الحرب الأهلية الإسبانية، واستقلت بحياتها وعملها في إحدى الشركات، هربًا من تعنت أسرتها ومن التقاليد الراسخة التي تسير عليها. ولم يكن رامي يستريح إلى زيارتها في شقتها، حيث أن زميلتها "ماري كلود" الفرنسية أحيانًا ما تكون هناك، ومع صديقها، ولم يكن رامي يحب هذا التجمع. وقد شجعته ماريسول على دراسة اللغة الإسبانية، وعرّفته على آدابها وفنونها الغزيرة، فقرأ لوركا وبابلو نيرودا، وأعجب بلوحات جويا وبيكاسو وسلفادور دالي، واستمع معها إلى الأغاني الإسبانية

الجميلة وشرحت له كلماتها، فأصبح يتغنى بأغاني خوان مانويل سيرّات وخوليو إجليسياس.

أما عن صلاته بالمصريات في باريس، فهو لم يكن يصادق سوى كميلة، وتقتصر علاقتهما على المصارحة الشخصية الكاملة بكل ما يمر بحياتهما، وعلى المناقشات الأدبية والفنية، وزيارة بعض المعارض، وتبادل بعض الكتب. وقد قرنت ألسنة السوء اسميهما معا، ولم يهتم أيهما بذلك، وحتى حين انطلقت تلك الألسنة بشائعات عن علاقات أخرى لكميلة، لم يهتم بها رامي كذلك.

ولم يكن واضحًا في قلبه مدى شعوره تجاه كميلة. كان يشعر بالهدوء والسكينة معها، وهما يتحادثان ويتناقشان في كثير من الأمور. وكانا يتصارحان بأمورهما الشخصية، فكانت تطلب رأيه في بعض الأشياء، وكان يعتبر نفسه راعيًا لها. وكان يعلم، من هذا المنطلق، حقائق صداقاتها وعلاقاتها بالآخرين، وإن كان لا يتفق معها في كثير مما تقوم به، ويُرجع ذلك إلى شدة رسوخ العادات التي اكتسبها من حياته في مصر، رغم كل ما كان يبديه من سعة أفق وتفهم لمظاهر الحياة الغربية، بل وإصرار على السير على خُطى بعض خطوط تلك الحياة. وتذكر كيف أنه صدم الكثير من الناس في مصر برأيه في عدم جدوى نظام الزواج، وأن أفضل ما يفعله المحبون هو ما فعله سارتر وسيمون دي بوفوار، من الحياة معًا دون شيء رسمي، مما يؤكد حرية اختيارهما. وكان رامي حريصًا على حضور المحاضرة التي ألقاها سارتر وبوفوار في جامعة القاهرة في زيارتهما لمصر عام

١٩٦٧ بل وشق الصفوف بصعوبة وتمكن من مصافحتهما يدًّا ليد. ورغم أن كميلة كانت تشاركه الرأي في مسألة الزواج تلك، وتعتقد أن شكل الارتباط الذي يجمع بين سارتر وبوفوار هو الطريقة المثلى للحب الذي يجمع بين العاطفة وحرية الاختيار.

وقد بدأ رامي حياته ككاتب ومترجم منذ تخرجه، فكتب مقالاً عن رواية الغريب لألبير كامي لاقت استحسانًا من القُرّاء، وتوالت بعدها مقالاته المؤلفة والمترجمة. كان يريد من وراء ذلك أن يُعرَف اسمه فيبدأ فيما أعدَّ نفسه له وهو كتابة الرواية. كان قد قرأ عددًا هائلاً من الروايات العالمية، ورأى أن هذا النوع الأدبي هو ما يقدِّم نوازع النفس الإنسانية وخباياها أحسن تقديم، وتنبأ بأن الرواية هي التي ستستمر في الانتشار والذيوع، لكثرة قارئيها وتنوعها بحيث تجذب كل أنواع القراء. ودائمًا ما كان يضع تخطيطًا لما يسميه رواية جيله، يصف فيها التطورات التي أحاطت بما يسميه "جيل الستينيات" من أحداث وظروف أثّرت في أفراده، ويصوِّر فيها من عرفهم من زملاء ذلك الجيل، وعلى رأسهم أستاذه وصديقه الحميم الذي كان يشير إليه دومًا بلقب "أستاذنا الكبير". ولذلك كان همه الأكبر هو دراسة الطبائع الإنسانية لمن حوله من المصريين والعرب كيما يتمكن من تحويلها إلى أفكار يضمّنها روايته.

(٦)

هبّ رستم من نومه على عجل، كما يفعل كل صباح، لا بسبب الإسراع إلى جامعته، أو إلى موعد هام، أو إلى عمل يقوم به، بل لكي يحمل حاجياته ويخرج بلا هدف، تاركًا الغرفة الصغيرة التي يشغلها في تلك البناية القديمة لساكنها الذي يعود من عمله في الصباح الباكر.

كان رستم مثالاً للشاب الذي يرحل عن بلده يملأه الأمل والطموح إلى الدراسة والعمل، ثم تتجمع عليه المشاكل والصعوبات فلا يدري أين يذهب، ويصبح واحدًا من الضائعين في العاصمة الضخمة. كان أبواه قد ذهبا للعمل في إحدى دول الخليج، وحين تفتحت أمامهما أبواب الرزق، أرادا لأولادهما الثلاثة أن يحصلوا على أفضل تعليم، وكان من رأيهما أن يدرسوا جميعًا في لندن، حيث لديهم إلمام باللغة، وحيث نظام التعليم مشابه له في الدولة التي يعملان فيها. ولكن رستم أراد أن يعيش حياته منفردًا، فسافر فجأة بعد قضاء سبعة شهور في لندن إلى باريس، يحمل تأشيرة سياحية، ثم بقي هناك بعد انتهاء التأشيرة. وقد حاول مرات عديدة أن يلتحق بإحدى الجامعات هناك، ولكن وقفت في وجهه الأوراق المطلوبة، وعلى رأسها شهادة بإتقان اللغة الفرنسية. أما العمل فكان متقطعًا وبائسًا، يسقط فيه هو وأمثاله في أيدى المستغلين لظروفهم الصعبة، وهم للأسف مصريون مثله، ولكنهم لا يعطونه إلا ما يسد الرمق.

وقد امتلأ صدره بالحقد والمرارة من هذه الظروف التي تحيط به، ولم يعد يفكِّر إلا في الطريقة التي سوف تخرجه من هذه الحياة البائسة التي يحياها في مدينة تعجّ وتضج بالحياة والنور والبهجة. كان قد قطع كل اتصال له بأسرته في الكويت، وبشقيقيه في لندن، ولم يرغب في معاودة علاقته بهم إلا بعد أن تتحسن حالته. ولكن هذا التحسن أصبح بعيد المنال ولم يعد يصلح له سوى القيام بشيء جريء وجديد، شيء هائل، بدأ يتشكل في ذهنه تدريجيًا وتتضح معالمه.

وقد تبلور هذا الخاطر في ذهن رستم بعد زيارة له إلى متحف اللوفر، قام بها فحسب لسماعه أنه مكان صالح للتعرف على الفتيات الأجنبيات اللاتي يزرن المتحف، إذ لم يكن لديه أي نازع أو حتى فراغ بال لرؤية ما يحويه المتحف من كنوز فنية حضارية. وكانت زيارته له مأساة، فقد تاه في وسط أبهائه وصالاته، وبهرته فعلاً السائحات الشابات من كل لون وجنس، صغيرات السن وناضجاته؛ وكان يتطلع إليهن في شوق شديد، وإن كان لا يدري لماذا يهتمن كل هذا الاهتمام بما يراه من تماثيل ولوحات، ولذلك عجز عن أن يفتح حديثًا مع أي منهن، أو يعرض عليها أن تصاحبه في جولتها، كما كان يرى بعض الشبان الأوروبيين والأمريكيين. ومضى في تجواله حتى قادته قدماه إلى جناح الحضارة المصرية القديمة، فأصابه الذهول، كان كأنما دلف إلى المتحف المصري في ميدان التحرير. وهو طبعًا لم يذهب إلى المتحف المصري في صباه برغبته، بل كان قد زاره مع مدرسته وهو في المرحلة الإعدادية، ولا يزال يذكر كيف انتابه الملل والضجر من

الزيارة، فانخرط مع اثنين من رفاقه المتضررين أيضًا من الزيارة الإجبارية، في لعب الكوتشينة والدومينو والحديث عن أغاني عبد الحليم حافظ، وهكذا كانت تسليتهم في تلك الأيام... ودارت عيناه فيما يراه أمامه في اللوفر: تماثيل ضخمة لا يعرف كيف نُقلت من مصر، أبو الهول ممددًا، وتوابيت ملونة هائلة، وملوك وتيجان وملكات، وجداريات كاملة، ووثائق بالبردي رأسية وأفقية، وتماثيل ومومياوات صغيرة من كل صنف ونوع. وكان من أكثر ما لفت انتباهه تمثال صغير أزرق اللون لفرس النهر، ماذا يا ترى شأن هذا التمثال؟ كيف يمكن أن يكون من أيام الفراعنة ولونه برّاق كأنه صُنع بالأمس فقط ؟ وحاول أن يقرأ اللآفتة المثبتة أسفله، ترجمتها كما يلي :

(تمثال فرس النهر. الفترة المتوسطة الثانية، الأسرة السابعة عشرة، طيبة. ارتفاع ١٢,٧ سنتيمتر؛ الطول ٢٠,٥ سنتيمتر؛ العرض ٨,١ سنتيمتر).

وهام غرامًا بذلك التمثال الصغير وأصبح شاغله ليلاً ونهارًا. وتألم أشد الألم لرؤية مثل هذا الجمال، مع الآثار الثمينة الأخرى، معروضة في بلد غير بلده. وطفق يفكّر ويبحث في الوسيلة التي يستطيع بها أن يستحوذ على ذلك التمثال ! كان يرى في الحصول عليه استعادة لحق من حقوقه كمصري، ولكن المشكلة كانت كيف يفعل ذلك دون أن يتعرّض للسجن. وأخذ يستعيد في ذهنه الروايات البوليسية التي كان يقرأها في القاهرة، أرسين لوبين وروكامبول وغيرهما. ووجد إلهامًا في فيلم أمريكي لبيتر أوتول وأودري هيبورن

عن سرقة في متحف، وفيلم آخر للفهد البمبي؛ كما يسميه بالعربية؛ عن سرقة مماثلة. وتردَّد على مكان التمثال مرات كثيرة، يدرس وضعه وحراسته والمكان بأكمله؛ وكان يذهب طبعًا في اليوم الذي يُخصص للدخول بالمجان، تضايقه الزحمة الشديدة، ويتمنى لو أتى في يوم آخر يخف فيه الزحام، ولكنه لم يكن ليضحي بثمن التذكرة وهو في أمسّ الحاجة للنقود للعيش المجرد من كل رفاهية. غير أنه أحسّ بالحاجة إلى مزيد من المعلومات، بل وحتى إلى شريك أو شركاء له يأتمنهم على سره ويؤمنون بمثل ما آمن به من ضرورة معاقبة هؤلاء الناس باسترداد شيء مما سرقوه من بلاده.

وبدأ على الفور اتصالاته بمن يعرف، وكان شديد الحذر في كلامه عن الموضوع، وفي اختيار من يحدِّثه عن خطته. ورغم هذا، فقد فوجئ رستم بمن يتهكم عليه، ومن يظنه مجنونًا، ثم الجبناء الذين لا يريدون أن تكون لهم أي صلة بمثل ذلك الموضوع، ولو حتى بالسماع. وعلى هذا فقد قرّر أن يعتمد على نفسه في تنفيذ مشروعه. ثم كانت الليلة التي استمع فيها في قهوة المصريين إلى حديث ذلك المصري المتخصص في الآثار، فبرق في ذهنه أن يستعين به، إن لم يكن لشيء عملي، فعلى الأقل لمعرفة المزيد من سرقة الدول الأجنبية للآثار المصرية، وللتأكد من صفة ذلك التمثال الصغير، وهل هو مسروق أم أنه دخل إلى اللوفر بطريقة مشروعة.

وذهب رستم إلى موعده مع عادل عبد الحميد تملأه الآمال وتراوده أسئلة كثيرة، لم يكن قد لاحظ دهشة عادل من طلبه، ولا

استغرابه للهجته وحديثه، فما كان رستم يفطن إلى شيء من هذا في شخصيته، ولا يدري أنه يختلف عن طبقة هؤلاء المثقفين، فقد كانت معظم علاقاته مع أمثاله من الشباب الجامعي غير الناجح في دراسته.

ووجد رستم "عادل" في مجلسه يقرأ في كتاب بالإنجليزية عليه صورة آثار فرعونية، وأمامه كوب من الشاي، فسلَّم عليه، ثم شكره على حضوره في الموعد.

- وأرجو ألا أكون قد أثقلت عليك في هذا الأمر.

- لا، أبدًا. ولكني متحير في ذلك الموضوع الذي تريدني فيه، فأنا جديد في باريس كما تعلم.

- أيوه، عارف. لكن ما أريده يتعلق بتخصص حضرتك.

- تخصصي ؟

- أيوه. الآثار. رغم إني مش ضليع قوي في الموضوع ده، لكن اللي مضايقني مضايقة شديدة هو وجود هذا الكم من آثارنا المصرية هنا في فرنسا. أنا لمَّا بدخل اللوفر وأشوف كل هذه الآثار بتاعتنا أقول لنفسي إزاى اتنقلت الثروة دي لهنا. طبعًا بالسرقة والنهب.

- والله مش دايمًا. الحقيقة إن كان فيه زمان قانون يسمح لبعثات التنقيب الأجنبية أن تأخذ جزءًا من الآثار التي تعثر عليها.

- ولكن... السرقات... والنهب.

- نعم، نعم. كانت هناك سرقات ونهب، أنا لا أنكر ذلك. وحتى هذا الكتاب الذي أقرأ فيه الآن يذكر ذلك بالتفصيل.

- صحيح ! هذا عظيم ! ما اسم هذا الكتاب يا أستاذ ؟

- اسمه اكتشاف مصر، من تأليف لزلي جرينر، وهو بالإنجليزية، فأنا لم أتعود بعد على القراءة بالفرنسية. وهو يقص حكاية آثار مصر واكتشافها وانتقال ما انتقل منها إلى الخارج بالقانون، وبالسرقة والنهب كذلك، بالتفصيل. إنه كتاب جميل.

- وهل يقص حكاية الزودياك دي اللى كنت بتتكلم عنها ؟

- بالطبع.

- وماذا عن القطع الأخرى، خاصة القطع الصغيرة، تمثال سيد قشطة مثلاً ؟

- سيد قشطة ؟ قالها محب مندهشًا.

- أيوة. اللى هوه فرس النهر.

- أوه. لم أمر بعد به في هذا الكتاب. لكني أعلم أنه توجد منه نسخ كثيرة. في اللوفر وفي المتحف المصري بالقاهرة. وحتى متحف نيويورك قد اتخذ هذا التمثال شعارًا له. وهذا غريب جدًا.

- الحقيقة إن الموضوع ده هوه اللى كنت عاوز أناقشك فيه. الدول دي، ومنها فرنسا، نهبت بلادنا وخيراتها وآثارها، ومع ذلك تمنعنا من البقاء هنا وتحرّم علينا الشغل اللي إحنا في أشد

الحاجة له. وعشان كده، أنا مسيطرة عليّا فكرة إن إحنا ناخد حقنا بإيدينا.

- إزاى، لا أفهم.

- مثلاً، الآثار دي، ليه ما ترجعشي بلدنا ؟

- أنا أعلم أن هناك مفاوضات عديدة مع كل الدول في هذا الشأن، كما أن هناك مشاريع اتفاقيات توضع الآن في الأمم المتحدة وفي اليونسكو لإعادة الآثار المسروقة إلى بلادها الأصلية.

- ياه يا أستاذ، حلّني بقى لما المفاوضات دي تجيب نتيجة، أو الاتفاقات دي. لا... لا. إحنا لازم ناخد الأمور في إيدينا.

- ماذا تقصد ؟

- دي فكرتي. أنا من ساعة ما شفت تمثال سيد قشطة الأزرق الجميل ده في اللوفر وأنا مهووس بيه. وقلت لنفسي أهو ده اللى حيبقى رمز استعادتنا لحقوقنا من البلد الظالم ده، رمز لانتقامي من المعاملة غير الكريمة اللى بيلقاها المصريين هنا.

- وما دخل التمثال في هذا ؟

- سأستولي عليه. سأحصل عليه.

- كيف ؟

- بالقوة، سأسرقه.

- إنك تمزح بلا شك.

- كلا. سأسرقه. عندي خطة كاملة للعملية دي. وكنت عاوز مساعدتك بالمعلومات اللازمة.

وشحب وجه عادل وردَّ بسرعة:

- لا أرجوك. أنا أتدرب مع الجهات المسؤولة هنا ولا أريد أن تكون لي أي صلة بهذا الموضوع. أنا لا أوفقك على هذا. هذا عمل غير مشروع.

- مشروع أم غير مشروع، سأنفذه. إنت خايف، مش كده. على كل حال، إنت لا تختلف عن الناس التانيين اللى كلمتهم في الموضوع. سأنفذ الخطة وحدي. لكن أرجو إنك ما تتدخلش في خطتي أو تقول عليها لحد.

- أنا كأني لم أسمع شيئًا. وما زلت أعتقد أنك تمزح. عن إذنك الآن. سلام عليكم.

ومشى عادل بعيدًا عن رستم، بينما هذا يتعجب من خوف وجبن هؤلاء "البهوات" المثقفين، الذين يملأون الدنيا صياحًا عن الحرية وعن أنفسهم، ثم لا يجرؤون على الدخول في تجربة عملية، ويسيرون دائمًا إلى جوار "الحيط" إيثارًا للسلامة.

(٧)

أولى بهـــــذا القلـــــب أن يخفقـــــا

وفي ضـــــرام الحـــب أن يحرقـــــا

مـــا أضـــيع اليـــوم الـــذي مـــرَّ بي

مـــن غـــير أن أهـــوى وأن أعشـــقا

عمر الخيام

ترجمة أحمد رامي

وقفت كميلة في الطريق الجانبي المتفرع من الشانزليزيه تسلّي نفسها بمرأى الفترينات البرّاقة المتوهجة. وكان يبدو أنها في انتظار أحد. ولم يطل الوقت حتى انزلقت عربة أنيقة وقفت إلى جوارها، وينادي عليها من فيها ويفتح لها الباب الأمامي فتدلف إليها في حبور.

كانت قد اتفقت مع ماجد أن يخرجا معًا طوال اليوم في نزهة خارج باريس، ويقضيا الليل في إحدى الضواحي القريبة، ثم يعودا بعد يوم أو يومين. كانت كميلة تحس أنها في حاجة إلى هذا التغيير بين وقتٍ وآخر، وكانت لا تجد سوى ماجد يفهمها ويحقّق لها ما تريده. وكان ماجد أكثر من صديق لها، فهو الحميم معها منذ فترة، وهو الذي تضن بالحديث عنه إلى أصدقائها وصديقاتها، ممن يظنون أنها على علاقة بهذا أو ذاك من معارفهم، فعلاقتها شبه الدائمة هي مع ماجد. وقد عرفته في ظروف طبيعية مهدت شيئًا فشيئًا للعلاقة الوثيقة التي ربطت بينهما. وقد وجدت فيه نعم الملاذ، بيد أنه كان ملاذ الأمن فحسب، ولا يمتد ذلك الملاذ إلى المشاركة في الميول والطباع والأهواء. وقد ارتبطت بماجد على هذا النحو في الوقت الذي كانت فيه في أمسّ الحاجة إلى الشعور بالأمن، الأمن من الحاجة والضياع في المدينة الواسعة، حتى تستطيع أن تتفرغ لدراستها وتتمكن من تذوق ما تجود به تلك البلاد من متع فنية وأدبية وتاريخية.

ومضى ماجد بالعربة يزهو بها على عادته وهو يمرق في الطرقات الضيقة، كالطفل، يريد أن يعرض أمام كميلة قدراته. وكانت

كميلة تضحك في سرها من هذه الأعمال الصبيانية، وتحاول أن تثير في ماجد بعض التذوق للأشياء التي تهمها في الحياة، بدرجات متفاوتة من النجاح والفشل. كانت قد أقنعته بالتوجه معها إلى ضاحية فرساي لزيارة البلدة والقصور والحدائق المشهورة هناك، وقد تعجبت جدًا حين ذكر لها ماجد أنه لم يزر القصر أبدًا، رغم مروره عدة مرات بالمكان.

كان ماجد في حدود الأربعين من العمر، قضى منها ما يزيد على العشرين عامًا في فرنسا، وقد حضر إلى فرنسا هربًا من عائلته اللبنانية التي أرادت له أن يشب في المجال السياسي الذي كان قد بدأ يتشكل في البلاد عشية الاستقلال، ولكنه لم يصبر على الدراسات الطويلة المعقدة التي رسمها له والداه، وفضَّل العمل بالبيزينس. ولمَّا لم يُقنع أحدًا بحقيقة ميوله، اضطر إلى أن يطلب السفر إلى أوروبا ليبدأ حياته هناك، ولقد كان قرارًا صعبًا وحاسمًا في حياته وحياة أسرته. فهو قد أتى إلى باريس في زيارة سياحية حين لم يكن قد تعدى التاسعة عشرة من عمره، ثم مكث في البلاد منذ ذلك الوقت. وحين حاول ألا يلفت إليه الأنظار، سافر إلى مرسيليا حيث الكثير من فرص العمل، وحصل بالكاد على عمل متقطع في الميناء، ولكن جهده ومثابرته وإخلاصه في العمل دفع به إلى المقدمة. وتنقل من عمل إلى آخر، حتى استطاع آخر الأمر أن يستقل بنفسه في شركة صغيرة للاستيراد والتصدير تعاملت مع الدول العربية والإفريقية. وكانت بسمة الحظ له في تجارة البن، فقد تعهد استيراد البن اليمني من أجود

أنواعه، فنافس به الأنواع البرازيلية والكولومبية التي كانت منتشرة في السوق الفرنسية. وقد أخذت أعماله جُلَّ وقته في السنوات الأولى فألهته عما كان ينتويه من إكمال دراسته، فلما هبط عليه الثراء والوقت الحُر، كان قد اعتاد الحياة السهلة ولم يعد يفكِّر في دراسات أو غيرها... وقد تقلب في حياته العاطفية كثيرا، مع فتيات فرنسيات، ولكنه في نهاية الأمر غلبه الطبع العربي، ووجد قلبه يميل إلى كميلة، فأصبح صديقًا ملازمًا لها، وإن لم يتفهم حياتها الفنية والفكرية، واهتماماتها المتعددة البعيدة عن اهتماماته وتطلعاته. ولكنهما كانا يتفقان في حُبِّ الترحال ورؤية جمال الطبيعة في كل مكان، والحديث الجيد، والطعام والشراب في أرقى أنواعهما. وكان يحرص حرصًا شديدًا على أن يقدِّم لها كل ما تحب وترغب فيه، حتى وإن لم يكن هو نفسه يحبه.

انطلقت العربة في طرق فرنسا الحريرية، وثمة غابات كثيفة على جانبي الطريق. وتذكرت كميلة ما قرأته عن تلك الغابات، التي كانت مرتعًا للملك الشمس، لويس الرابع عشر، وحاشيته، حين كانوا يقومون برحلات الصيد واللهو والمراح. لا بد أن تاريخ تلك الحقبة كان يمتع "محب" لو كان هو الذي معها، ولكانا تبادلا الكثير من المعلومات عن ذلك الموضوع... وتعجبت كميلة: لماذا لا يوجد شخص واحد يجمع كل ما تريده من صفات: الثقافة والفن والثراء وطلاوة الحديث والرفاهة في تذوق كل متع الدنيا... هكذا هي الدنيا، وعليها هي أن تختار.

أوقف ماجد عربته الفارهة في أمكنة الوقوف خارج منطقة القصور، وكان عليهما أن يسيرا مسافة كيما يصلان إلى "مجمع فرساي" ودعاها ماجد في منتصف الطريق إلى الجلوس هنيهة في واحدة من عشرات الكافيتيريات المنتشرة في تلك المنطقة، للراحة وشرب "الأبيريتيف".

كانت كميلة تحمل في يدها دليل "ميشلان" عن فرساي، تقرأ فيه بين حين وآخر، بينما ماجد يقول لها لا داع للقراءة بل الاستمتاع بالروؤية وحسب، فتضحك لقوله وتجيبه بأن المعرفة بالأشياء هي أساس الاستمتاع به وتزيد من ذلك الاستمتاع، وتحاول أن تحمله على الاستماع لبعض المعلومات عن المكان الذي يزورونه معًا.

- اسمع يا سيدي: بدأ إنشاء هذا القصر في عهد لويس الثالث عشر، الذي كان من هواة الصيد في هذه المنطقة، ففكر في إقامة منزل صغير له كي يأوي إليه في أثناء الصيد، ثم اتسعت تلك الفكرة لتصبح إنشاء مقر كبير للبلاط، ونمت تلك الإنشاءات في عهد الملك الشمس، تعرفه طبعًا ؟

- من ؟

- لويس الرابع عشر. أنا أحب جدًا دراسة عصر ذلك الملك الذي بلغت فرنسا وحضارتها الذروة في عهده.

وطاف الزائران بالحدائق الشاسعة المحيطة بالقصر الرئيسي قبل أن يدلفا إلى داخله. وكان الزوار غالبًا في جماعات سياحية يقودها مرشد يشرح لهم بلغتهم في نبرة خفيضة، ولكن كانت ثمة جماعات

كبيرة يشرح لهم مرشد بصوت جهوري رنَّان. ضحكت كميلة وقالت لماجد: هم الإسبان. يبدو أنهم أخذوا تلك العادة من الدم العربي الذي يسري فيهم !

- هكذا أنتِ دائمًا. تتجنين على قومك وتنحازين إلى الغرب "المتمدن".

جذبته كميلة من ذراعه قائلة إنها ستريه أجمل بهو في القصر. وقادته إلى بهو "المرايا" الشهير، ووقفت تشرح لماجد أهميته وتاريخه وجماله الفني. وبعد أن طافت معه بأهم الغرفات، خرجا يتجولان في الحدائق الغناء.. كان الجو جميلاً، يعبق بعطر الأزهار والورود، مما أضفى رومانسية جميلة على ماجد وكميلة. أمسك بيدها بين يديه فتركته يعبث فيها، كانت تعلم أنه يحبها، وقد عرض عليها الزواج أكثر من مرة، فكانت تتهرّب بأنها لم تُخلق للزواج، وأن أمامها عالمًا واسعًا عليها أن تخترقه وتجوب رحابه قبل أن تفكِّر في الاستقرار. وكانت تسمع عن مغامراته العاطفية والجنسية السابقة، وكلما فاتحته في ذلك يضحك ويقول إنه سيكتفي بها وحدها لو قبلت الارتباط به.

وعرجا على مطعم صغير؛ وإن كان فاخرًا، على جانب من الطريق. كانت كميلة تعجب بذوق ماجد في الطعام، وكرمه الحاتمي حين تكون معه. فالأكل لا بد أن يكون كاملاً، بدءًا من الأورديفر، ثم الطبق الثاني فالثالث، متبوعًا بالجبن الفرنسي المشهور، فالحلو، ثم القهوة أو الشاي للختام. ولا بد طبعًا من "إرواء" كل هذا الطعام بالنبيذ الفاخر.

كان المطعم رائعًا، والمكان ساحرًا بعث النشوة في أوصال كميلة التي كانت أفضل من يتذوق جمال تلك الأمكنة المتسقة فائقة الجمال. وطلب ماجد أجود أنواع النبيذ، وطلبت كميلة أحب المشهيات إليها: نصف دستة من القواقع البورجوندية، أتبعتها بالفيليه مينيون نصف الناضج. ولم يكن ماجد يطيق القواقع، كما أنه يحب اللحم au point، فائق النضج. ولكنهما التقيا في تذوق النبيذ الجيد الذي حملهما إلى عوالم السحر الخفية معًا. وتتابع الكلام بينهما عن مباهج باريس التي يحبانها، وما ينتويان عمله في الإجازة. وكان ماجد يحاول إغراء كميلة بالذهاب معه في زيارة لأمستردام في أغسطس لاستكشاف مباهجها، قنواتها ومقاهيها الشهيرة.

- قنواتها أم فتياتها المعروضات في الفترينات في المنطقة الحمراء ؟

فقهقه ماجد ضاحكًا وقال :

- وهذا أيضًا، فهو منظر سياحي ضروري لكل من يزور أمستردام.

- إني أحلم بالذهاب إلى هناك لرؤية ما عندهم من لوحات فان جوخ. وطبعًا لوحات كبار الرسامين الهولنديين الآخرين. هل سمعت عن فرمير ؟

- لا

- إنه غير مشهور للأسف. ولكني اكتشفته من قراءتي لرواية بروست البحث عن الزمن الضائع. كان يعيش في مدينة " دلفت " بهولندا. فإذا ذهبنا لا بد من زيارتها لأرى أصل لوحة "منظر من دلفت ".

- أعدك أن نذهب إلى أي مكان تريدينه لو جئتِ معي. سنذهب بالعربة المرسيدس.

- ألا تخشى سرقتها ؟

- إنها مغطاة تمامًا بالتأمين.

وتعجبت كميلة من أقدار الحياة. لو أن "محب" كان ثريًا مثل ماجد، هل ياترى كان يصبح جادًا في دراسته كما هو الآن ؟ وهل كان سيرى الكوابيس التي يحكيها لها أم لا ؟ صحيح أن الحاجة تشحذ الفكر والعقل. وجال بخاطرها: ماذا لو لم يعاني فان جوخ من مشاكله الوجدانية والعقلية ؟ طبعًا لم نكن لنستمتع الآن بلوحات السوسن والليلة المرصعة بالنجوم وعباد الشمس. ولكنه كان سيعيش سعيدًا ويموت سعيدًا بعد عمر طويل، ولكن بلا شهرة ولا عبقرية خلاَّقة ولا انصهار في محراب الفن... إنها معادلة صعبة. وفهمها صعب كذلك على العقل الإنساني.

كانت رحلة العودة تتسم بالاسترخاء بعد وليمة الفكر والطعام والشراب، وكانت الولائم الثلاث من نصيب كميلة، بينما نصيب ماجد الطعام والشراب، فقد كان ممن يسمون **Hedonists** أي أتباع مذهب اللذات الحسية، وهو شيء لا غبار عليه حين يكون المرء قادرًا عليه بعد حرمان، وفي بلد كفرنسا، لا يجب عليه أن يتخفى من أعين الناس. وكانت كميلة في حياته بمثابة معادل موضوعي يوازن بين اتجاهاته وبين ضرورة الارتباط بحبٍ حقيقي يمكن معه تحقيق ذاته ومشاركة طرف آخر حياته واهتماماته. وكان ماجد سعيدًا بتبحر

حبيبته في أمور الفن والأدب، ويحاول جهده أن يستمع إلى ما تشرحه له من تلك الأمور، واثقًا أنه سوف يحب ما تحبه كميلة شيئًا فشيئًا، كما هي تحب كل ما يحبه من المقتنيات الثمينة التي يملأ بها منزله وشقته الباريسية الأنيقة، وفيها من "الأنتيكات" الثمينة ما تعتبره كميلة تُحفًا فنية، وإن كان هو ينظر إليها كاستثمارات فحسب. وهو قد تعجب جدًا من تردد كميلة بل رفضها الزواج منه، مفضلة أن يعيشا هكذا مثل سارتر وسيمون دي بوفوار، فهي غير مؤمنة بجدوى الزواج، وشاهدت كيف انتهت زيجات الكثير من صديقاتها إمّا بالطلاق أو بالاستسلام لحياة تقليدية رتيبة لا حياة فيها، بل وانتهت في حالات استثنائية بخيانات وعقوق.. ولكنه كان راضياً بالصورة التي ارتضها كميلة لعلاقتهما، ويحاول دومًا الاقتراب منها ومن الموضوعات التي تهيم بها، فهو يرى فيها الجانب الذي يتممه، فحرص على وجوده.

(٨)

"...فاعلم أن لفظة "كان" تعطي التقييد الزماني وليس المراد هنا به ذلك التقسد وانما المراد به الكون الذي هو الوجود فتحقيق كان أنه حرف وجودي لا فعل يطلب الزمان ولهذا لم يرد ما يقوله علماء الرسوم من المتكلمين وهو قولهم وهو الآن على ما عليه كان فهذه زيادة مدرجة في الحديث ممن لا علم له بعلم كان ولا سيما في هذا الموضع...ولهذا سماها بعض النحاة هي وأخواتها حروفًا تعمل عمل الأفعال وهي عند سيبويه حرف وجودي وهذا هو ما تعقله العرب وإن تصرفت تصرف الأفعال فليس من أشبه شيئًا من وجه ما يشبهه من جميع الوجوه بخلاف الزيادة بقولهم وهو الآن فإن الآن تدل على الزمان وأصل وضعه لفظة تدل على الزمان الفاصل بين الزمانين الماضي والمستقبل ولهذا قالوا في الآن أنه أحد الزمانين فلما كان مدلولها الزمان الوجودي لم يطلقه الشارع في وجود الحق وأطلق كان لأنه حرف وجودي وتخيل فيه الزمان لوجود التصرف من كان ويكون فهو كائن ومكون كقتل يقتل فهو قاتل ومقتول وكذلك كن بمنزلة أخرج فلما رأوا في الكون هذا التصرف الذي يلحق الأفعال الزمانية تخيلوا أن حكمها حكم الزمان فأدرجوا الآن تتمة للخبر وليس منه..."

ابن عربي

جلس محب في المكتبة القومية الفرنسية وأمامه عدد من الكتب والمخطوطات. كان قد تصفح جميع المخطوطات التي تتصل بأسامة بن منقذ وأعماله، واكتشف بعد دراسة طويلة أن المخطوط الموجود في المكتبة القومية هو نسخة من مخطوط "الاعتبار" الموجود في مكتبة الإسكوريال في إسبانيا، والذي سبق أن حققه الأستاذ الكبير "فيليب حتّي" وأصدره عام ١٩٣٠. ويبدو أن أحد الباحثين في القرن التسع عشر قد عثر على مخطوط الإسكوريال وكتبه بيده ثانية، حيث وصل في النهاية إلى مكتبة باريس. وقد حاول محب أن ينقذ ما يمكن إنقاذه بأن طالع المخطوط مع الكتاب المنشور، ووجد أنه يختلف مع الأستاذ "حتّي" في تحقيقات بعض الكلمات والعبارات. ولكن، هل يكفي مثل هذا الاختلاف أن يكون أساسًا لرسالة علمية ؟

كان محب قد أنجز بعض ما يحلم به من راحة بعد أن نجحت كميلة في التوسط له فالتحق بالعمل جُزءًا من الوقت بالمركز الثقافي المصري في الحي اللاتيني، وقد أتاح له ذلك المكان التعرف على كثير من المصريين والعرب الذين يفدون على المركز لاستعارة الكتب والاستماع للمحاضرات أو مشاهدة الأفلام المصرية التي يعرضها المركز. وكان العمل يناسبه تمامًا، فلم يكن يأخذ منه وقتًا ولا جهدًا، كما أن المشرف على المركز يقدِّر عمله في المخطوط ويتيح له ما يحتاج من وقت للدراسة. وقد مكّنه الراتب المقرر له أن يستأجر أستوديو مناسب بالقرب من المكتبة القومية، فرح به بوصفه قد وفَّر له حريةً واستقلالاً معيشيًا.

وبينما محب غارق في تأملاته، وجد أمامه أحد موظفي المكتبة يقول له :

- مسيو فوزي ؟

- نعم.

- هذه رسالة لك.

- رسالة ؟ ممن ؟

- إنها من إحدى رواد المكتبة. وقد تركت لك هذا الخطاب بعد أن علمتْ أنك تدرس مخطوطة معينة تطلبها دائمًا.

وتعجب محب من ذلك، وشكر الرجل وتناول منه الرسالة وهو في غاية الدهشة. وقرأ :

" مسيو محب فوزي

قد تعجب من كتابتي لك دون سابق تعارف. ولكني علمت أنك باحث مصري تدرس المخطوطات العربية القديمة، وأنك مهتم خاصة بمخطوط كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ. ولما كنت أمتلك عددًا من المخطوطات التي تتصل بالموضوع الذي تدرسه، فقد فكرت بأنك قد ترغب في رؤيتها لترى ما إذا كان فيها ما يفيد دراساتك وبحثك. أرجو إذا كان في الأمر ما يستحق اهتمامك أن تتصل بي على رقم..... لنرى ما يمكن عمله. وتقبل تحياتي.

شانتال دي أونفلير ".

ملأت الدهشة نفس محب، فها هو باب جديد ينفتح أمامه دون أن يحتسب، وإن كان عليه أن ينتظر ليرى ما وراء هذا العرض المغري العجيب. كان يسمع عن مؤامرات تـُحاك للإيقاع بالشباب العربي من أمثاله للعمل في أمور مريبة، لذلك وعد نفسه بالتقصي والتمهل كيلا يكون في هذا الموضوع ما يريبه.

حمل محب معطفه القصير وأخذ الخطاب في يده، وسار في البهو الطويل إلى الخارج. كان العرض المقدَّم من شانتال مغرياً وملغزاً إلى درجة شعر معها بالرغبة في استجلائه في أسرع وقت.

كان الطريق أمام المكتبة القومية مزدحمًا بالسيارات، صفًا وراء صف. وتطلع محب حوله باحثًا عن كابينة تليفون، ووجد واحدة فدلف إليها، غير أنه تبين له أن التليفون فيها معطل، بعد أن عبثت الأيدي به بحثا عن النقود التي يضعها المتحدثون في خزانته. وإذ وقف محب داخل الكابينة دهشًا من وجود هذا التخريب في بلد متحضر كفرنسا، غشيته غمامة الرؤى، وتطلع أمامه فوجد طرقات العاصمة تمتلئ بكبائن تليفونية مختلفة، لا يلزم لاستعمال تليفوناتها أي نقود، بل بطاقات بلاستيكية خفيفة يدفع بها المتكلم في شق مخصص لها، فتحادثه شاشة مرئية بها تعليمات ما يجب عمله لإتمام الاتصال. وبذلك حلَّت فرنسا بالتفكير الخلاق تلك المشكلة التي تهددت هذه الخدمات وأبعدتها تمامًا عن نطاق التخريب والسرقة. ولاح لمحب طيفه هو ذاته وقد شغف بجمع تلك البطاقات التليفونية ذات الصفة الفنية، ومنها بطاقات لمشاهير النجوم، رأى في

يده منها بطاقة لمارلين مونرو وأخرى لشنايدر، واللوحات المشهورة الموجودة في المتاحف الفرنسية، لفان جوخ ورينوار وسيزان وغيرهم.

وأفاق من غشيته فخرج من تلك الكابينة وتوجه إلى كابينة تليفون أخرى، ووجدها تعمل، فأخرج عملة معدنية من ذات الخمس فرنكات، وهي أعلى فئة في المكالمات، كيما يكون متأكدًا من كفايتها لمدة المكالمة الموعودة.

ورد عليه صوت نسائى.

- مدموازيل دي أونفلير من فضلك ؟
- من يطلبها ؟
- لقد تركتْ لي بطاقة تطلب مني الاتصال بها على هذا الرقم.
- لحظة من فضلك.

وبعد برهة، جاء صوتٌ آخر مختلف :

- مسيو فوزي ؟
- بعينه. مدموازيل دي أونفلير ؟
- نعم.
- لقد وصلتني رسالتك عن المخطوط الذي أعمل فيه. وأرجو ألا أكون قد تعجلت في الاتصال بك، فالأمر يهمني جدًا.
- إني مسرورة باهتمامك واتصالك، وواثقة من أن الأمر سيكون في غاية الأهمية بالنسبة لك. لقد علمت من صديقي في المكتبة عن اهتمامك بمخطوط ابن منقذ، وأعتقد أن لديّ مخطوطات لهذا المؤلف وقد يكون من بينها الكتاب الذي تدرسه.

- المخطوط الذي رأيته في المكتبة القومية يبدو أنه نسخة من المخطوط الإسباني الذي تمّ تحقيقه بالفعل ونشره في أمريكا.
- على العموم، أنا أقترح أن تحضر عندي لترى مخطوطاتي.
- هذا كرم عظيم منك. متى يمكنني الحضور يا ترى ؟
- أنا الآن في شقتي بباريس. ولكن كُتبي ومخطوطاتي –وقد ورثت معظمها عن جدي – موجودة في بيتنا بنورماندي، فإذا أحببت نتفق على يوم أصحبك فيه إلى هناك وأريك كل شيء.
- هذا عظيم. لكِ أن تحددي أي يوم يناسبك، فأنا كما تعلمين دارسٌ حُر.
- ما رأيك في يوم السبت القادم ؟
- هذا يناسبني تمامًا.
- إذن نتقابل يوم السبت مبكرًا. سآتي بسيارتي الساعة التاسعة صباحًا. أين تحب أن تنتظرني ؟
- أمام المكتبة القومية ؟
- وهو كذلك. أرجو أن أعرفك وأن تتعرف عليّ من سيارتي: إم بي دبليو.
- وأنا طويل ورفيع. سنعرف بعضنا بسهولة.
- داكور. إلى اللقاء إذن.
- إلى اللقاء، وشكرًا.

ووضع محب السماعة وهو يشعر أنه مقبل على شيء جديد يحمل في طياته وعودًا وآمالاً كبارا.

* * *

وقف محب في انتظار شانتال. جاء إلى الموعد مبكرًا كعادته، وجعل ينظر إلى المارَّة ويفكِّر: هل يا ترى تقوده هذه المعرفة الجديدة إلى شيء هام في أبحاثه ؟ كان الأفضل أن يستفسر منها حين حادثها تليفونيًا، بدلاً من القلق الذي اعتراه حتى الآن. ولكن... ها قد حان وقت معرفة ما سيكون، وشاهد العربة من بعيد، لأنه كان يحب معرفة أنواع السيارات المختلفة، ولأن السيارات غير الفرنسية قليلة في باريس.

توقفت السيارة أمامه، وفيها شبح فتاة شقراء، فتحت النافذة وصاحت :

- مسيو فوزي ؟
- مدموازيل أونفلير ؟
- تفضل.

دلف محب إلى السيارة في جوار الفتاة، التي أغلقت النافذة وتحركت بالسيارة دون إتجاه معين.

- إني آسفة على لقائك هكذا دون المزيد من التفاصيل، ولكني متأكدة أن ما سأعرضه عليك مهم جدًا لدراستك وعملك.
- أنا واثق من هذا، فقد ذكرتِ لي أن لديكِ فيما يبدو مخطوطة عن كتاب أسامة بن منقذ. ولكن، كيف حصلتِ على تلك المخطوطة ؟

- هذه حكاية طويلة. أبدأ بالقول إني قد درست اللغات السامية والأدب المقارن في السوربون. ولكن هذا ليس له علاقة بما عندي من مخطوطات.

- وهل عندك مخطوطات أخرى غير مخطوط أسامة بن منقذ ؟

- الكثير.

صمتت شنتال برهة وهي تجاهد في المرور الكثيف للعربات في قلب باريس. وتعجب محب من قدرتها على المحاورة بالعربة في ميدان النجمة الذي ذكّره بالمرور في ميدان التحرير بالقاهرة...

- أرجو ألا يكون لديك مواعيد اليوم، فرحلتنا ومهمتنا في دوفيل سوف تأخذ اليوم كله.

- دوفيل ؟ أليس هذا شاطئ الملوك ؟

- ها ها ها. طبعًا، فهو كان مصيف ملككم السابق.

- نعم، أذكر ذلك.

- السيارة عادة تقطع المسافة بين باريس ودوفيل في ساعتين، ولكن مع هذه السيارة الألمانية، يمكن أن نقطعها في أقل من ذلك... كنت أقول إن المكتبة الثمينة التي عندي ترجع إلى جدي لوالدتي الذي كان مغرمًا بجمع الكتب والمخطوطات النادرة. كان مقيمًا في الجزائر، وقد وُلدت أمي هناك، وكان من المفروض أن أولد أنا أيضًا في الجزائر، ولكن أبواي ذهبا إلى باريس عند مولدي. وقد أقمتُ في الجزائر فترة طويلة رغم ذلك، ولهذا آثرت أن تكون دراساتي ذات صلة باللغة العربية والدين

الإسلامي الذي نشأت في أحضانهما. إني خريجة السوربون كما ذكرت لك سابقًا.

- جميل.

- أنا أعرف أن السوربون مشهورة عندكم جدًا في مصر، فكثير من الوزراء منذ عهد طويل من خريجيها. وقد تعرفت على شخصيات كثيرة من مصر والبلاد العربية الأخرى في الجامعة في أثناء دراستي بها.

- وماذا درستِ يا ترى ؟

- دراستي الجامعية كانت في اللغات السامية وآدابها المقارنة أساسًا، ثم درست شيئًا معادلاً للماجستير عندكم في اللغة العربية. وأنا الآن بصدد تحضير رسالة الدكتوراه؛ مثلك تمامًا.

- في أي موضوع ؟

- تأثير الأدب الفرنسي في أعمال وفكر توفيق الحكيم.

- يا له من موضوع مشوق.

- نعم. ولكنه يحتاج إلى دراسات وقراءات عدة.

- ولكن... كيف عرفتِ بي وبدراساتى ؟

- إن رئيس المخطوطات العربية في المكتبة القومية من معارفي الوثيقين، منذ أيام جدي، وبيننا تعاون كبير في مجالات الكتب والمخطوطات. وقد حدَّثني عَرضًا عن وجود باحث يتوفر على دراسة مخطوطة كتاب الاعتبار لابن منقذ. ولما كنت أعرف أن

لدينا مخطوطات لابن منقذ فقد رأيت أنك أفضل من يمكن له الانتفاع بمثل هذا الكنز.

- إذن أنتِ تعرفين العربية ؟

- نعم، ولكن ليس بسلاسة أو طلاقة، خاصة في الكلام. إني أقرا الفصحى على نحو حسن وأتكلم بعض اللهجة الجزائرية.

- فلتجربي إذن معي. كي تتمرني.

فضحكت شانتال :

- لا، لا. سوف تضحك مني. وعلى كل حال، سوف نتعامل باللغة العربية معًا بالطبع حين أريك ما لديّ من مخطوطات. لقد تمكنت من فرز بعض المخطوطات بنفسي، ولكن قراءتها أو حتى معرفة عناوينها أمر في غاية الصعوبة بالنسبة لي، ولهذا فقد تجنبت دراسة الأدب العربي القديم وفضلت أدبًا حديثًا كأدب توفيق الحكيم كما ذكرت سابقًا. تعرفه طبعًا ؟

ضحك محب في سرَه: "أعرفه ؟ لقد غرقتُ فيه".

- أجل. قرأت معظم أعماله كما أنني حضرت له ندوات كثيرة تحدث فيها.

- لقد قابلته أنا أيضًا منذ فترة في القاهرة وحدثته عن رسالتي. كان مشجعًا جدًا لي وأعطاني بعض الإرشادات والمعلومات القيمة عن الموضوع الذي أبحث فيه، وقد دعاني لحضور الندوة التي يعقدها أحيانًا في كافيتيريا فندق سميراميس، وقابلت هناك عددًا من كبار الأدباء والصحفيين.

- إني أحسدكِ لأنك تعملين في موضوع أدبي. كنت أحبّ أن أتفرغ أنا أيضًا للأدب، ولكن الظروف دفعت بي إلى دراسة التاريخ. غير إني أقضي أوقاتًا كثيرة في الإطلاع على الآداب العالمية.
- عظيم. إذن لا بد أن أستنير برأيك في أعمال رسالتي.
- هذا أقل ما أستطيع أن أقوم به ردًّا على كرمك البالغ.

وكان محب يتطلع في نفس وقت الحديث إلى الطرق التي يمران بها، كم كان يحب مناظر الطبيعة الخلابة، خاصة بعد أن خرجا من المدينة وأصبحا منطلقين "على طرق فرنسا" كما يقولون. كانت الحقول تمتد شاسعة على الجانبين، وقد بدأت المحاصيل في الظهور، الطبيعة تزداد جمالاً وأناقة كلما دخلت العربة إلى منطقة النورماندي المشهورة بالخضرة والجمال، والأبقار الناعمة، والبيوت الأنيقة المسماة "شوميير". لم يكن محب يدع الحديث مع شانتال يشغله عن متابعة الطريق والمدن والقرى التي يمران بها. بونتواز. لو دخلنا المدينة لرأينا آثارًا لفان جوخ حدثته عنها كميلة: المنزل الذي مات فيه، الكنيسة، دار البلدية، وقبره هو وأخوه ثيو. ثم بعد ذلك "روان" مدينة جان دارك الجميلة... سألته شانتال هل زار روان فأجاب بالنفي، فأوصته بضرورة زيارتها. قال إنه ينوي زيارة نورماندي كلها هذا الصيف، فأوصته أيضًا بزيارة "مون سان ميشيل"، ذلك الجبل المدينة، الذي تتنازعه كلٌّ من بريتاني ونورماندي. وحسمت شانتال الأمر بتأكيدها أنه تابع لنورماندي ! وتحدثت شانتال إليه عن آثار فرنسا التي يجب أن يزورها، ومنها أيضًا "كاركاسون". وسألها محب

عن وجود أي آثار لمعركة "بلاط الشهداء" في بواتييه أو تور، فأجابته بالنفي؛ على حد علمها؛ ربما لعدم إثارة حساسيات مع العرب.

وبعد روان هبطت السيارة إلى طريق فرعي، وبدأ محب يرى لوحات الطريق إلى دوفيل، لم يكن يحلم يومًا بزيارة هذه المدينة التي ارتبطت دومًا بالأثرياء والأمراء والملوك، ربما يمكث فيها بعد زيارة منزل شانتال يومًا أو يومين للزيارة، هذا إذا وجد فندقًا رخيصًا تتحمله ميزانيته.

وأهلَّت المدينة. وقلَّلت شانتال من سرعة السيارة. لم يكن هناك داعٍ لذلك، فالطرق فيها فسيحة هادئة صقيلة، وهناك قليل من الناس. وكالعادة لفت نظره الموائد على الأرصفة أمام المقاهي الأنيقة، وروادها ينعمون بشمس أبريل مع أقداح القهوة. وتماوجت السيارة في طرق براقة ناصعة قبل أن تقف أمام بوابة حديدية عريضة وتطلق شانتال الكلاكس، وسرعان ما ظهر وراء البوابة رجل في بزة رسمية سارع بفتح الأبواب لتدلف السيارة إلى الداخل.

وراع المنظر محبًا. رأى قصرًا منيفًا على البعد، تحيط به مساحة كبيرة من الحدائق والخضرة. كما يتبدى في الأفلام تمامًا.

- ما هذا ؟ يبدو أنك تقيمين في قصر فرساي !

فضحكت شانتال ولم تجب.

- كان يمكن لك أن تعيشي هنا بلا أوجاع الدراسة والدكتوراه وما إليها.

- إني أعشق الدراسة والبحث. هل قرأت تشيكوف ؟

- نعم. أظن أنك تشيرين إلى شخصية "الطالب الأبدي" الذي صورها في إحدى قصصه.

- فعلاً. يبدو أنك قارئ جيد للأدب العالمي.

- على قدر استطاعتي.

وتوقفت السيارة أمام باب القصر، وهبطا منها. ودقت شانتال الجرس الخارجي، وبعد برهة فتحت الباب سيدة يبدو أنها مدبرة المنزل. رحبتْ بشانتال ومحب، بينما قادت شانتال محب إلى حجرة داخلية بدت كالصالون، وأشارت له إلى مقعد، وسألته ما يريد أن يشرب، وهل تناول فطورًا أم لا.

- أجل لقد أفطرت، فأنا لا أستطيع الخروج دون إفطار الصباح. ولكن لا مانع من قهوة أخرى باللبن لو سمحت.

وعادت شانتال بعد برهة وقد غيّرت ملابسها بملابس عادية، جينز وتي شيرت، قائلة لمحب إن هذه هي الملابس التي تستريح فيها، والتي شاركت بها في مظاهرات الطلاب. ودهش محب من تلك المعلومة، ذلك لأنها من طبقة الأثرياء، بينما كانت فكرته عن ثورة الطلبة أنها ثورة شيوعية.

- كلا. إنها ثورة فكرية تحررية مستقبلية. كما أنني أعتنق أفكارًا تقدمية أيضًا. إني من حواريِّ سارتر وإن لم أصبح شيوعية. إني أعشق أفكاره الفلسفية عن الحرية، والوجود السابق على الماهية.أمّا الالتزام فإذا كنت ألتزم بشيء فهو الالتزام بالإنسانية.

- وهل تعرفين سارتر ؟

- طبعًا. فأنا أحضر مجلسه في الكوبول. وقد زارني هنا مع سيمون دي بوفوار. ولدينا كتب ممهورة بتوقيعهما. إذا رغبت، يمكن أن تأتي معي إلى مجلسه.

- إن هذا يكون رائعًا. إني أحلم بلقاء هؤلاء الكتّـاب.

وبعد أن فرغا من تناول القهوة، دعته شانتال لرؤية المكتبة. ودلفا إلى قاعة فسيحة محاطة بالرفوف من كل جانب حتى السقف. ومنها رفوف مغطاة بزجاج فاخر، خمِّن محب أنها تلك التي تحتوي على المخطوطات.

- كلا. إن المخطوطات في غرفة جانبية صغيرة، لها حرارة مضبوطة. أما هذه الرفوف الزجاجية فهي للكتب النادرة والتي تحمل توقيع مؤلفيها. تعال. إن أقرب الكتب فيها إلى قلبي الطبعة الأولى من رواية " الغريب " لألبير كامى، وعليها إهداؤه إلى جدي عام ١٩٤٢.

- أوه. إنا أيضًا أعشق كامى.

وأزاحت شانتال ضلفة زجاجية وتناولت كتابا منها قدمته لمحب، الذي تناوله برهبة، وفتح صفحاته وقرأ توقيع كامى فأصابته رعشة، وتخيل أمامه المؤلف بوجهه الصبوح وعينيه البارزتين العميقتين وفي يده القلم وهو يخط هذا الإهداء ويؤرخه في عام صدور الكتاب.

- لابد أن أباك فخور جدًا بكل هذه الكتب الثمينة ؟

- في الحقيقة أنه غير مهتم بقيمتها الفكرية والأدبية، فهو قد وهب وقته كله لصناعة وتجارة المشروبات الروحية، في شامبانى مقر العائلة. وهو منذ وفاة والدتي لم يعد يأتي إلى دوفيل إلا نادرا.

وأخذ محب يتطلع إلى عناوين الكتب الأخرى. كل اللغات والجنسيات. أكثرها فرنسي. جانب للحاصلين على جائزة نوبل للآداب. لم يحصل عليها عربي واحد للأسف. رأى الكتب بدءا من " سللى بريدوم " وحتى آخرهم صمويل بيكيت. كان يعمل مع جيمس جويس ومع ذلك لم ينلها جويس. هل حقًا لديها توقيع كل هؤلاء الأدباء الذين حصلوا على الجائزة ؟ همنجواي، شتاينبك، باسترناك، تشرشل. لكم يحب أن يرى توقيعاتهم وخطهم. كان يعلم أنها استثمار جيد كالاستثمار في لوحات الرسامين المشهورين، فأسعارها في ارتفاع دائم، ولكن يجب معرفة الأسماء التي تزداد قيمتها وتلك التي تظل أسعارها ثابتة أو حتى تنخفض.

- كم أحب أن أقضي هنا بقية حياتي بين هذه الكتب. حتى لو أصبحت سجينا في هذه الغرفة.

ضحكت شانتال لهذه العبارة وردت بأنه يستطيع البقاء كما يحلو له، ولكن على ألا ينسى عمله في الدكتوراه.

ثم قادته إلى ركن خاص، وقالت له :

- هنا تجد الكتب التي أعمل فيها.

وتطلع محب فرأى ترجمات لكتب توفيق الحكيم التي صدرت بالفرنسية، وبعض كتب طه حسين. لم يكن يظن أن ترجمات الحكيم بهذه الكثرة : شهرزاد، عودة الروح، يوميات نائب في الأرياف، أهل الكهف، عصفور من الشرق، والمسرحيات الأخرى، حتى مسرحية يا طالع الشجرة.

- أرى أيضًا أن لديك الترجمات الإنجليزية، وبعض الإسبانية.
- أجل. إني أقرأ بهذه اللغات. وعندي مؤلفاته كلها بالعربية. إني أقرأ العربية على نحو حسن، ولكن ليس بنفس السرعة والدقة التي أقرأ بها في اللغات الأوروبية.
- ولكني أرى معظم مؤلفاته موجودة بالفرنسية، لذلك فلن تجدي صعوبة في رسالتك.
- هناك بعض الكتب التي لم تترجم بعد، وهي هامة جدًا لرسالتي. معظمها عن تفاصيل حياته، وهذه أساسية لمعرفة قراءاته المبكرة وعن حياته في باريس.
- أها. مثل زهرة العمر ؟
- بالضبط. أنا بصدد قراءته هذه الأيام. إني أعمل في الرسالة تحت إشراف البروفيسور جاك بيرك. لقد قبل الإشراف برغم انهماكه في إعداد ترجمة جديدة للقرآن.
- شيء عظيم، هو مستشرق معروف جدًا في بلادنا، أنت محظوظة بالعمل معه.

- لقد أنجزت الكثير من الرسالة، وقد وجهنى لقراءة زهرة العمر كي آخذ منه ما يفيد.
- كم أحب ذلك الكتاب. إنه سيزودك بالكثير من الأفكار عن كاتبنا العظيم وتكوينه الفكرى. بإمكأني أن أقرأه معك إذا أحببتِ.
- أوه. هذا يكون فضلا كبيراً منك. تعال الآن حيث اختصاصك.

وتقدمته إلى غرفة ملحقة بالمكتبة، قادتهما إلى غرفة أخرى مغلقة الباب. وحين فتحته ودخلا، أحس محب بتغير في درجة الحرارة واختلاف في درجة الإضاءة، وأدرك أنها غرفة المخطوطات. ووجد خزانات حفظ مماثلة، وفي أرجاء الغرفة المختلفة إطارات زجاجية تحفظ أوراقا مخطوطة، رأى حين دقق فيها أنها خطابات أصلية بخط مؤلفين مشهورين.

قادته شانتال إلى خزانة كبيرة، فتحت بابها، وأخذت تتفحص عدة مجلدات ضخمة بعناية وحرص، ثم جذبت إحداها وقدمته إلى محب قائلة :

- أرجو منك أن تحرص في التعامل مع هذه المخطوطات. أنا أعلم أنك خبير بذلك. هذا مخطوط أسامة بن منقذ، وقد قام خبراء في المخطوطات بترميمه وحفظه، مثله مثل المخطوطات الأخرى التي لدينا. تفضل اجلس.

جلس محب وتناول المخطوط بخشوع، وفتحه فوجد أن كل ورقة من ورقاته محفوظة في غلاف شفاف. وقرأ في يمين المجلد وصفا

للمحتويات فلم يجد غير: "مخطوطة كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ" مكتوبة بخط غريب يصعب تفسيره لغير العربي. لا بيانات أخرى. وجال في خاطره أنها نسخة أخرى من نسخ الإسكوريال. فتح أول صفحة بيد مرتجفة فأصابه الذهول. لم تكن الصفحة تبدأ بالعبارة المشهورة : " ولم يكن القتل في ذلك المصاف في المسلمين كثيراً وكان وصل من الإمام الراشد بن المسترشد رحمهما الله ابن بشر رسولا إلى أتابك يستدعيه ". كانت المخطوطات المتوافرة تبدأ بهذه العبارة، التي لم تكن أول الكتاب، فقد كانت هناك صفحات مفقودة، يقدرها الخبراء بحوالي ٢١ صفحة ولكن دون إثباتات قاطعة. وقد رأى محب الصفحة الأولى من المخطوط الذي بين يديه فأصابه الذهول، إذ كانت فيما يبدو فاتحة الكتاب على ما جرى به العرف في كتابة المخطوطات أيامها. وطبعًا كانت الكلمات باهتة، والخط مغربي وغير منقوط ولا تشكيل به. ولكن الأمل أن يكون هذا المخطوط كاملاً وبه الصفحات الناقصة جعل دقات قلب محب تتسارع، ولكنه أخفى حماسه عن شانتال، مدفوعًا بالخوف الغريزي المتأصل من رد فعل الطرف الآخر من اكتشاف كنز مهم كهذا.

- ما رأيك ؟

- مخطوط جدير بالنظر. ولكن لا بد من فحصه وتقييمه.

- أعرف هذا. إني جد آسفة من عدم إمكان تصويره. أو إخراجه من هنا. هذه أوامر والدي. حتى أنا حين أريد دراسة هذه

الكتب أو أي من المخطوطات، لا بد أن أقرأها هنا في هذه الغرفة. وطبعًا، يمكنك أن تفعل هذا أيضًا.

- إمممم. سيكون ذلك صعبا.

- لا صعوبة بالمرة. كما ترى، البيت كبير، ويمكنك أن تأتي إلى هنا عندما ترغب، بل وتقيم أياما كما تشاء. وسوف نرتب هذا فيما بيننا.

- وهل يقرأ والدك هذه الكتب ؟

- لا أعتقد ذلك. لقد ورث معظمها عن جدي، الذي ورثها عن أجداده الأقدمين. إن أسرتنا تعود جذورها إلى القرون الوسطى. ولا أظن أن أبي يعرف عنها شيئًا غير ندرتها. أما عن عمله فهو قد تخصص كما ذكرت لك في صناعة وتجارة المشروبات الروحية. عنده مزارع للعنب ومصانع ومخازن في إقليم شمبانى ومدينة كونياك.

- أها. هذا غريب.

- لقد كوّنت أسرتنا من فرع والدتي ثروتها من هذه التجارة، وهم يأخذونها مأخذ الجد، ولهم ابتكارات باسم العائلة في هذه المشروبات تضارع أسماء كورفوازييه. هل زرت أيًّا من تلك المصانع ؟

- كلا ليس بعد.

- إنها زيارات شيقة، أصبحت ضمن المزارات السياحية. ولكني أعرف أن من يهتمون بالثقافة والكتب لا يهتمون بهذه الأمور الأخرى. هيا بنا نأكل.

وصحبته إلى غرفة الطعام. كان هناك العديد من الخدم في المنزل – القصر. أخذوا يقدمون الطعام بالطريقة الأرستقراطية. الشراب أولا. تتبعه فاكهة. ثم الأطباق الرئيسية، وبعدها أنواع الجبن المختلفة، فالقهوة. وجلسا يأكلان بينما الخدم يقدمون الأطباق ويرفعونها. لم يكن محب متعودًا على الأكل تحت المراقبة تلك، ولا بهذه الطريقة، ولكنه أكل ما وسعه مشاركة لشانتال.

- ها أنت تشرب يا مسيو فوزي.

- نادني محب.

- أوكيه. فلنرفع الكلفة. أنت محب وأنا شانتال.

- عظيم. نعم إني أشرب. وخاصة من هذا النبيذ الرائع.

- إنه من مزارعنا أيضًا.

- وهذا سبب آخر يدعوني لتذوقه.

شعر محب أنه في جو سحري. وخاف أن يكون ما يمر به إحدى الرؤى الغرائبية التي تمر به كثيرا. ولكن، ها هو، إنه في هذا القصر، وأمامه هذه الفتاة الساحرة التي جمعت بين الجمال والثقافة واللطف. فماذا يا ترى يخبئ له المستقبل ؟

(٩)

أسرعت كميلة خطاها كي تلحق بموعدها مع محب، فرغم تعوده على عدم احترامها للمواعيد بسبب جموحها الدائم، كانت لا تحب أن تجعله ينتظرها طويلا. كانا دائمًا يتلاقيان أمام البوابة الرئيسية لمتحف اللوفر، ولكنها اليوم لن تدخل المتحف، بل ستجلس مع محب في أحد المقاهي يتحدثان. كان لديها ما تحكيه له، وهو أيضًا قال إنه يريد الإفضاء لها بأشياء.

وجدته في انتظارها كعادته، جالسًا إلى جدار منخفض، يقرأ في كتاب. وقف حين لمحها قادمة، وصافحها مرحِّبًا، ووجدت في عينيه نظرة جديدة.

- أين سنذهب ؟

- هيا بنا إلى شارع مونبارناس. أريد الجلوس إلى الروتند.

ومضيا يسيران في تمهل في طرقات باريس الزاخرة بالعلامات والإشارات الفنية والثقافية والتاريخية. عبرا شارع ريفولي بمحلاته المليئة بالتحف السياحية، وانعطفا يسارًا متجهين لعبور الجزيرة من على البون نيف "الكوبري الجديد". وتحادثا وهما يتشربان ما يرياه.

- لقد وقعت لي حادثة غريبة جدًا.

- طيبة أم سيئة ؟

- جميلة جدًا. كالحلم.

- إذن ففي الأمر فتاة. احكِ لي.

قصّ عليها محب لقاءه مع شانتال، وقصرها المنيف، وكُتبها الثمينة. ثم حكاية المخطوطة الجديدة التي اكتشفها هناك.

- وهل تأكدت أنها مختلفة عن المخطوطات التي تعمل فيها ؟
- أكيد. فهي كما أعتقد أول مخطوطة كاملة للكتاب، فهي تبدأ بالمقدمة المعهودة في بداية المخطوطات في عصر أسامة بن منقذ. وقد عددت صفحاتها وهي أكثر بكثير من صفحات المخطوطة بنسخها المعروفة.
- هذا اكتشاف يا محب، بل هو كنز.
- لا أدري ما أفعل الآن. هل أخبر الأستاذ المشرف في مصر ؟
- أرى أن تنتظر قليلاً حتى ترى ما يمكن عمله.
- آه لو أن الدكتور" فيليب حتّي " ما يزال موجودًا اليوم ! كم كان سيسعده مثل هذا الاكتشاف.
- ولكن، قل لي : كيف هي تلك الفتاة شانتال ؟
- جميلة وذكية.
- اذن سيكون لك قصة معها !

فضحك محب وقد تورد وجهه.

- حدثني عن مناطق الفتنة فيها.
- المناطق على ما يرام. وهي تُذكي خيالاتي. ولكني أتطلع أيضًا إلى مناحيها الفكرية والثقافية.

- ليس هناك من تعارض. بل إن الأمرين يكمل أحدهما الآخر. أنا أحلم بشخص يجمع الاثنين. وقد حكيت لك كيف أنني أكافح مع ماجد حتى أجعله يتذوق الفن والموسيقى، وقد نجحت في ذلك قليلاً وسأتقدم فيه شيئًا فشيئًا.

- أنت تعرفين رأيى في هذا الأمر. إن ماجد لا يصلح لك.

- ومن يصلح ؟ أنت ؟

فتورد وجه محب وضحك.

كانا قد وصلا إلى كوبري "البون نيف" أي الجسر الجديد، وأخذا يعبرانه.

وابتسم محب. ولما سألته كميلة عن سبب ابتسامته العريضة، قص عليها كيف أن هذا الكوبري، رغم اسمه، هو أقدم الكباري في باريس على هيئته الأصلية. فقد وُضع أول حجر فيه أصيل يوم ٣١ مايو ١٥٧٨ بيد الملك هنري الثالث في حضور الملكة الأم كاثرين آل مديتشى والملكة لويز دي فوديمون. وقد لقى هذا الجسر ترحيبًا كبيرًا من الجمهور الفرنسي عند إنشائه، فلأول مرة أصبح بإمكان سكان باريس المرور فوق الجسر وتأمل نهر السين من تحتهم.

قالت كميلة : كم أحب كباري باريس. إنها تحفة في تصميمها وجمالها. وحتى أساميها. فأنا أحب جدًا العبور مرارًا من على "كوبري الفنون".

- طبعًا فهو تخصصك. ولا تنسي كوبري ميرابو، والقصيدة الجميلة التي ارتبطت به.

- تقصد قصيدة أبولينير. كم هي جميلة. أتعلم أنها من أوائل القصائد التي جرى تسجيلها بصوت مؤلفها ؟

- حقًا ؟ إن ذلك مدهش. كم أود سماع ذلك الصوت القديم. هل عندك التسجيل ؟

- نعم. سوف أسمعك إياه حين تزورني في المرة القادمة. ولو أعجبتك فسأسجل لك نسخة منها. هل عندك كاسيت ؟

- لم أشترِ واحدًا بعد. ولكن عندي جهاز تسجيل صغير من نوع البكرات.

- أجل أعرف ذلك النوع. عندي واحد منه كبير. ولكن اختراع شرائط الكاسيت الصغيرة أفضل وسوف تنتشر أكثر من أجهزة التسجيل الثقيلة تلك.

وبدأت كميلة تتلو بصوت عذب بداية سطور القصيدة.

" تحت جسر ميرابو

يجري نهر السين

ويجري غرامنا.

أعليّ أن أتذكر كل ذلك ؟

البهجة دائمًا ما تأتي بعد الألم ".

ثم قالت :

- لماذا لا تترجمها يا محب ؟ أعرف أنك قد ترجمت عددًا من القصائد إلى العربية.

- فكرة طيبة. سأدرجها في قائمتي.

- رغم أنهم يقولون إن الترجمة خيانة. وما بالك بترجمة الشعر.

- صحيح. ولذلك لا بد في الشعر من التصرف في الترجمة وإلا جاءت حرفية لا معنى لها. سنترجمها سويًا حين نصل إلى المقهى. ربما كان أبولينير جالسًا في ذلك المقهى حين كتب هذه القصيدة ؟

- إن خيالك جميل يا محب. لماذا لم نصبح معًا ؟ ها أنت لديك فتاتين بدلاً من واحدة. وأنا مازلت حائرة.

- أي فتاتين ؟

- خطيبتك في القاهرة وشانتال.

- حرام عليكِ. إن خيالك جميل أيضًا. من يدري ما يصنع القدر معي وشانتال ؟

- هذه أمور تسير وفق ناموس معين. سترى.

- سيصبح ذلك مأزقًا صعبًا لو حدث.

أجل إن شانتال تهيئ له كنزًا مرصودًا من كل شيء. الثقافة والعلم والجمال والفتنة، ثم معاملتها الرائعة له. كيف يا ترى تفكّر فيه ؟

ووصلا إلى مقهى "الروتند"، واحتلا مائدة خارجية. طلب كلاهما زجاجة من البيرة. وبينما أخذا يحتسيان المشروب ويتفرجان على المارة، تجاذبا أطراف الحديث.

- وماذا عنك يا كميلة؟ ما أخبار قلبك؟ لماذا تتحدثين عن حيرتك؟
- كما قلت لك من قبل. إني موزعة ما بين حبي لماجد وبين عدم اهتمامه بالفن. إني أجاهد كي أقربه من اهتماماتي الفنية. ولكن، ربما أفعل مثلك وأحب أحد الفرنسيين بدلاً من هذا التوزع.
- ها أنت تصرين ثانية على إني أحب شانتال.
- هذا يبدو من حديثك عنها.
- لا أنكر أنها فتاة مثالية، فيها كل الصفات المحببة. ربما لو لم أكن مرتبطًا بسهير لتجاوبت معها.
- ها قد وقعت بلسانك. هذا يعني أنها تحبك.
- لم أقل هذا. إنها متعاطفة معي فحسب.
- ولماذا هذا التعاطف ؟ انتظر وسترى.

وطاف في ذهن محب الطريقة التي تتعامل بها شانتال معه. لا شك أنها تتودد إليه. لقد أعطته الكثير. ذهبت معه أكثر من مرة إلى دوفيل، بل ومكثا هناك أياما، حيث أعدت له حجرة نوم هناك. وأعطته حق التردد على المكتبة متى شاء. وكانت تود لو أعطته المخطوط لولا الحرص الشديد لأبيها على عدم القيام بذلك تحت أي ظرف.

- أتعرفين يا كميلة، إن وضعينا متشابهان. أنت محتارة في حبك لماجد؛ ويبدو أنني في الطريق إلى الموقف نفسه من الحيرة.

- ها قد اعترفت. يبدو أن أفضل شيء أمامنا هو أن نترك من معنا ويحب أحدنا الآخر.

ضحك محب مقهقها. واستمرا يشربان ويفكران. ورويدا رويدا، شعر محب بالنوبة تتسلل إليه. كان يعرف مقدماتها جيدًا الآن، رغم أن تلك المقدمات لا تدوم سوى لحظات. إذ وجد نفسه جالسًا إلى " الروتند " ولكن كل ما حوله بدا في شكل مغاير. كل شيء انقلب إلى ما كان عليه عام ١٩١٩، بالطراز الذي كان سائدا وقتها بعد الحرب العالمية الأولى. " الدوم " هناك، ومقاهٍ أخرى عديدة، قد أخرجت الموائد والمقاعد أمامها والناس يقصفون ويلهون. ورأى شابا زرى المظهر، غير حليق الوجه، يمر على المقاهي والمشارب وفي يده وريقات بها رسومات غريبة، أناس ذوو وجوه وأجساد متطاولة بشكل ظاهر، وهو يعرض على الناس أن يرسمهم مقابل خمسة فرنكات للرسم. كان أشبه بالمتسولين. وكانت كثرة الناس تزجره، والبعض يلقى نظرة على الرسوم التي يحملها في يده، وآخرون ينفحونه فرنكا أو اثنين على سبيل الصدقة. أحس محب بقلبه يخفق عند رؤية ذلك الرجل. لم يكن يدري من هو أو في أي عصر عاش. لم يكن في قراءاته أو دراساته ما يمكنه من التعرف عليه، رغم وضوح وجهه ورسوماته في النوبة الحلمية. وأفاق محب تدريجيًا من نوبته الغريبة.

كانت كميلة تحملق في وجهه وهي شاردة الذهن. كانت تكلمه ولكن لم يكن يرد عليها. اكتشفت أنه ربما كان يموج في إحدى تلك النوبات التي سبق له أن حكى لها عنها. وكانت كميلة منبهرة بها، وتسميها " رؤى " كالرؤى التي كان يستشعرها نوستراداموس، وترى فيها علامة على السمو والاختلاف عن بقية القطيع، كما كانت تردد دائمًا عن الناس الذين لا يشعرون بالفن وأحاسيسه المرهفة.

وحكى لها محب ما رآه، فاتسعت حدقتاها اندهاشا وهتفت : طبعًا، إنه موديليانى. ألا تعرفه ؟

- سمعت عنه.

- إنه من أشهر الرسامين الآن. وقد عاش حياة بوهيمية في باريس وهنا في مونبارناس. وله أسلوب معين في الرسم لا تخطئه العين، يعتمد على إطالة الوجوه والأجسام. وقد انتهت حياته نهاية مأساوية بعد أن نهش السل صدره فقضى وهو في السادسة والثلاثين من عمره. وانتحرت حبيبته بعد يوم واحد من موته.

- غريب. هذا مصير كثير من الفنانين، خاصة في تلك الأيام القاسية. إني أسمع أن لوحاته الآن تباع بالالاف.

- أجل. لقد أصبحت في مستوى لوحات بيكاسو وفان جوج ومونيه. أتعرف أيضًا، لقد تمرن موديليانى في نفس أكاديمية الرسم التي التحق بها خليل جبران في العام الذي قضاه في باريس.

- يالمعلوماتك الغزيرة يا كميلة. كم أودٌّ أن أكون مثلك بها، خاصة حين يتعلق الأمر بفنانين مثل موديلياني.

- إنك تعرف أكثر مني. وأنا التي أود أن أدخل في تلك الرؤى التي تمر.

- غالبًا ما تأتيني تلك النوبات بمشاهد وعصور تاريخية، ربما لتخصصى في التاريخ، ولكن يبدو أن وجودك بقربي أحال الرؤية إلى موضوع فني.

- والمكان أيضًا، فموديلياني كان يتردد على " الروتند " و" الدوم " كثيرا. لسوف أصحبك يومًا لرؤية فيلم شهير عن حياته. عنوانه مونبارناس ١٩، من تمثيل جيرار فيليب. أنا أعشق هذا الممثل، خاصة صوته الرنان الذي جعله يسجل أشعارا فرنسية شهيرة بصوته.

- أليس هو الذي سجل تلخيصا دراميا لقصة الأمير الصغير لسانت إكزوبرى ؟

- بالضبط. لقد قضى هو أيضًا قبل الأوان. وكتبت زوجته آن ماري فيليب كتابا غاية في الرقة والحنين عن حياتهما معا. انظر يا محب، انظر إلى يمينك.

- واااو. أليس هذا بيكاسو ؟

- أجل.

- غريب أنه بمفرده. لماذا لا تذهبين وتحادثينه ؟

- وهل أنا مجنونة. معروف أنه لا يحب قطع وحدته. ولهذا يتجنب الناس إغضابه. ألا ترى أنه يدارى نفسه كي لا يتعرف عليه السياح ؟

- غريب أمر ذلك الرجل. يقال عنه أنه ساحر النساء رغم عدم تناسق تكوينه.

- السحر كله يكمن في الفن والعقل، وليس المظهر.

- معك حق. إن هذا المقهى ساحر.

- هناك مقاهٍ كثيرة يمكن أن تشاهد فيها من تحبه من الفنانين والأدباء.

- لقد وعدتنى شانتال أن تصحبني إلى الكوبول هنا.

- طبعًا، حيث سارتر.

- إنها تعرفه. وسوف نجلس في حلقته. وأنا قد رأيته من قبل عند زيارته إلى القاهرة عام ٦٧.

- من الواضح أن شانتال سوف تستولى عليك يا محب. ولذلك يجب أن تفكِّر منذ الآن عما ستفعل مع سهير.

وغرق محب في تفكير ذاهل.

(١٠)

جلس محب أمام المكتب الفخم على المقعد الوثير وقد نشر أمامه بعض أوراق المخطوط، والى جوارها كراسته وعدد من البطاقات البيضاء التي يدون فيها ملاحظاته. لقد جاء اكتشاف هذا المخطوط النادر ليقلب خططه رأسا على عقب، فللمرة الأولى - كما يعتقد - يوجد هذا الكتاب كاملا. إن مخطوط المكتبة القومية بباريس يكاد يكون مطابقا لمخطوط مكتبة الإسكوريال في إسبانيا، وهو الذي حققه الأستاذ العربي ونشره في الولايات المتحدة عام ١٩٣٠. والمخطوط - أو المخطوطة - الذي تمَّ نشره يقع في ٦٧ ورقة، وضاع منه حوالي ٢١ ورقة، كما أنه منقول من المخطوط الأصلي. ومن هنا تبين أهمية مخطوط شانتال، كما أصبح محب يسميه، فهو على ما يبدو المخطوط الأصلي الذي أملاه أسامة بن منقذ نفسه على أحد تابعيه، إذ هو ينتهي بالعبارات التالية :

وكان الفراغ من كتابة هذه الخواطر الموسومة كتاب الاعتبار التي أملاها مولاى أسامة بن منقذ، وزير الملك الصالح صلاح الدين الأيوبي في يوم الجمعة المباركة الواقعة في غرة شعبان المبارك من سنة ٥٨٠. أدام الله حكم سلطاننا الصالح ومد الله في عمر مولانا بن منقذ

إضافة إلى ذلك، فإن المخطوط الذي بين يدي محب يبدأ من أوله، بالصلاة على النبى الأمى واستلهام فضائله قبل البدء في تسطير خواطر الأمير بن منقذ. إنه اكتشاف ثمين لا يعدله اكتشاف تاريخي أو أدبي منذ فترة طويلة. وكان محب قد بدأ ينقل المخطوط في كراسات يحضرها معه. بدأ ينقل محققًا، ولكنه وجد أن التحقيق والتمحيص مع الكتابة سيستغرق وقتا طويلا ودراسة متأنية، فآثر أن ينقل المخطوط كما هو، على أن يراجعه ويحققه ويضبطه بعد ذلك. لا يدري كم من الوقت سيتاح له المجئ للقصر ودراسة المخطوط، فعلاقته بشانتال تأخذ منحى جديدا كل يوم، ولا يسلم الأمر من وقوع أي مشكلة قد تطيح بصلته بالفتاة. كانت علاقته بشانتال قد تطورت بتشجيع منها وقبول منه إلى علاقة كاملة بين محب وحبيبته، ولم يدر كيف انتهت إلى ذلك الشكل، ولكنه تذكر قول كميلة العارفة بأمور الطبيعة الإنسانية، وهي التي توقعت أنه لا يمكن أن تكون هناك فتاة فرنسية مثل شانتال كما وصفها محب بمقربة من فتى مثل محب إلا وتكون العلاقة الحميمية هي ذروتها.

وأفاق محب من كتابته على شفتين تقبلانه. وأحس بالنشوة تسرى في أوصاله. واحتضنته شانتال حين نهض لاستقبالها، وغرقا معًا في قبلة طويلة حالمة. ولاح في ذهن محب مدى الفرق في علاقته بين شانتال وبين سهير. مع سهير، يتطلب الأمر مناورات وخطط للفوز بقبلة. أما ما أبعد من ذلك فيِخطف خطفا. طبعًا الظروف تختلف، ولكن أفكار محب التحررية كانت أكثر ارتياحا للتقاليد الغربية عنها

للتقاليد المصرية. وامتدت يداه تحتوي شانتال روحا وجسدا، بينما شانتال تحتويه هي الأخرى، وغرقا في بعضهما البعض. ولم يشعرا بشيء إذ شانتال تأخذ بيد محب وتدلف معه إلى غرفتها. ورأى حجرتها الرحيبة لأول مرة، وكعادته، تفحصها بسرعة كعادته مع كل شيء جديد يراه. أناقة وترتيب. لوحات جميلة وبوسترز فنية على الجدران.

وترك نفسه لأيدي شانتال تصحبه إلى كنبة وثيرة جلسا عليها وغطسا في طنافسها. وتعلقت نظراتهما ببعض مرة أخرى، واتقدت فيها الرغبة الحسية الجارفة، فتقلبا في نيرانها العذبة ما شاء لهما التقلب. وغلب الاندفاع على محب، فمد يديه ليفك البلوزة من على صدر فتاته، ولما خلعها بدا له منظرا بديعا يغشاه اللون الوردى الذي يحبه. وتتابع المنظر رويدا رويدا، ومع كل خطوة تلهث الأنفاس، ولكن محب كان مصرا على استيعاب الجانب الجمالى من هذه التجربة إلى جوار كل الجوانب الحسية والعاطفية الأخرى.

ولمَّا اكتمل المشهد، أبعد محب جسد شانتال العارى عنه مسافة كيما يتأمل هذا الإبداع العظيم. لم يكن يصدِّق أن هذا الجسد الأبيض الناصع، مكتمل الصنع، أمامه، بين يديه، ملك يمينه، يفعل به ما يشاء. لم يصدق نفسه؛ هذا الجمال، كله،... كانت شانتال مثالاً لفينوس ميلو التي يراها في اللوفر، وإنما هي هنا تضطرم فيها الحياة والحركة والشوق والحب، والرغبة والحس. وتطلع إلى جسدها المرمرى العاجى طويلا، حتى أحست شانتال بأبصاره تخترقها

فاجتاحها خجل طفيف، فتحركت نحوه وجذبته إليها... وغرقا في دوامة الرغبة العارمة، حملتهما من الأريكة إلى الأرض، ثم انتهيا إلى فراش شانتال الوثير...

وسمع محب دقات ساعة الكنيسة البعيدة ثلاث مرات، قبل أن يهدأ تنفسه العاتى ويعود إليه هدوؤه، وشانتال بين ذراعيه، يتناجيان. وغرق أيضًا في الفكر.

لم تكن أول مرة يتبادل فيها العلاقة الحميمية مع شانتال. وتذكر كيف كانت أول مرة، وكيف كان وجلا يكاد يرتجف، بينما شانتال واثقة من نفسها، تهب له نفسها في دعة وبساطة وحب وعشق، تتبدى له في كل حركة من حركاتها. وكانت أول مرة قصيرة الأجل، ولكن عميقة المعنى. وتبادلا بعدها الأسرار الخصوصية، فعرف محب طبعًا أنه ليس الرجل الأول في حياتها، وإن كانت هي لم تهتم كثيراً بالاعتراف بذلك، وأنها مقلّـة في علاقاتها، وأنها معجبة به وبأسلوب حياته ولسعيه وراء المعرفة وتحصيل الفنون ومتابعتها. وحكت له عن حياتها، فهي وحيدة مع والدها المشغول دائمًا بأعماله وأمواله، والذي يعيش منذ وفاة والدتها حياة جوالة غير مستقرة. وهي قد ركزت اهتماماتها في دراستها وحبها للفن والأدب والموسيقى.

وحكى لها محب عن حياته كذلك، منذ طفولته السعيدة، ودراساته، والإرهاصات الفنية الأولى في حياته، وغرامياته الطفولية، ثم في فترة الصبا فالشباب. وقص عليها كيف أن عدم التحاقه بقسم

لغات قد أثّر عليه في ضرورة تعلم الإنجليزية، ثم روى لها بإيجاز قصة حبه مع سهير الذي ساعدته في تعلم الفرنسية.

وكعادة الفرنسيات، لم تحمل شانتال علاقة محب بسهير على أي محمل، بل تركت عواطفها على طبيعتها، وانطلقت في علاقتها بمحب إلى مداها وغايتها، وبدا كما لو أن هذه العلاقة قد تأصلت في قلبها وعقلها معا، إذ عاشت معه أوقاتا مليئة بالحب والفن والمعرفة والحس. كان قد أقبل يساعدها في قراءاتها لكتب توفيق الحكيم التي لم تترجم إلى الفرنسية، وأرشدها إلى كتاب هام من كتبه ذي صلة كبيرة بموضوع بحثها هو كتاب " زهرة العمر "، وكان من أحب الكتب إلى قلب محب حين قرأه في فترة الصبا عند صدوره في سلسلة كتاب الهلال، وجذبه إلى الفن وحب الفن.

وقد وجدت شانتال أن وضع محب المالي لا يساعده على الدراسة الجادة، فحاولت في بداية الأمر أن تقنعه بأن تعطيه أتعاباً مقابل الساعات التي يقضيها في مساعدتها على الدراسة العربية، ولكنه رفض ذلك رفضًا باتًا، قائلاً إنه سيساعدها في كل ما تريد دون مقابل، فهي قد أمدته بذخيرة عمره، وأتاحت له الإطلاع على مخطوط سيغير مستقبله الأكاديمي تمامًا. وعندها عملت شانتال على أن يتدخل والدها لدى معارفه في التبادل الثقافي الفرنسي، حتى خصصوا منحة محترمة لمحب بوصفه من دارسى تاريخ الحملات الصليبية، وهو موضوع له أهميته التاريخية بالنسبة للبلدين. وبهذا أمكن لمحب أن يتفرغ لأبحاثه، وبدأ يفكّر في ترك العمل الإضافى في

مكتبة المركز الثقافي المصري أو يختصره إلى وقت أقل. وزادت أحواله المالية انتعاشا، مما أتاح له حرية أكبر لشراء الكتب وما يحتاج من ملابس ومستلزمات.

وقد واكب كل ذلك عواطفه التي تنامت تجاه شانتال، فتغيرت حياته من أساسها. وقد ساهمت شانتال بجرأتها الطبيعية في الوصول بتلك العلاقة إلى غايتها الطبيعية، وهو ما لم يكن يجرؤ محب على البدء به من ناحيته. وكان كل ما يشغله ويؤلمه هو علاقته بسهير التي تركها في مصر. كانت المراسلات لا تنقطع بينهما، وكانت سهير تخطط للحصول على منحة دراسية وتلحق به في فرنسا لدراسة الدكتوراه في شعر أرتير رامبو، بعد أن تنتهي من رسالتها لدرجة الماجستير في القاهرة في أدب " ألبير كامى ". وكانا من قبل قد اتفقا على الزواج بعد مناقشة رسالة الماجستير والحصول على المنحة والسفر إلى فرنسا. وقد أطال التفكير في موضوع سهير وشانتال إلى الحد الذي كاد معه يشل قدرته على التركيز في دراسته، فترك الأمور لفترة تجرى على ما هي عليه.

كان الموضوع الذي تدرسه شانتال يستهويه تمامًا، فهو في الأدب المقارن، ويجمع بين الأدبين العربي والفرنسي. ومن المعروف أن إقامة توفيق الحكيم في فرنسا في فترة ما بين الحربين العالميتين قد جعلته يقرأ تراث الأدب الفرنسي بحاله، وتأثر إنتاجه به تأثرا كبيرا. وكان محب مهتما بفنانى وأدباء العالم الذين تجمعوا في باريس في تلك الفترة الهامة وأنتجوا العديد من الأعمال الخالدة سواء في الأدب أو

الرسم أو الموسيقى أو السينما. ففي هذه الفترة ورد إلى باريس الكثيرون مثل همنجواي وجيمس جويس وسكوت فتزجيرالد وبيكاسو وبونيويل وغيرهم. وكل هؤلاء كانوا من المقربين إلى قلب محب.

أفاق محب من تأملاته وهو يرجع بصره في حجرة شانتال. كان السرير واسعًا رحبا، أمامه مرآة كبيرة متلألئة، وفي أحد جانبي الحجرة رفوف للكتب، وفي الجانب الآخر خزانة ضخمة من الخشب الثمين تضم تليفزيونا وبيك أب وإسطوانات عديدة.

- أتحب أن تشرب شيئًا ؟

- نعم. بعض العصير.

دقت شانتال جرسًا إلى جوارها، ففزع محب ونهض يغطي نفسه، فضحكت شانتال وقالت ما معناه أنه ما يزال خجولاً رغم معرفة جميع خدم البيت بعلاقتها به. ودقَّ الباب ودخلت خادمة طلبت منها شانتال إعداد بعض المأكولات الخفيفة والمشروبات. قام محب وارتدى ملابسه وجلس على أحد الفوتيات الوثيرة بالحجرة. كان يتعجب من طبيعة شانتال وتلقائيتها حتى في الخصوصيات التي يخاف هو عليها من أعين المتلصصين. إنها مجبولة من طينة خاصة، صنعتها أيضًا ظروفها الأسرية المعينة. ماذا يخبئ له القدر معها. حياة جديدة وعادات جديدة مع شانتال ؟ أم حياة عادية تقليدية مع سهير ؟

وجاءت الخادمة بصحفة الأكل والشراب، ولم تجد شانتال حرجا من مبادلتها الحديث وهي في الفراش وما تزال عارية، وضحكت الاثنتان وخرجت الخادمة. فقام محب وأدار مفتاح التليفزيون وجلس إلى جوار شانتال وتناول زجاجة من البيرة وشرب منها على الطريقة المصرية، مع بعض الجبن وحبات الزيتون. وحمل التليفزيون أخبار مذبحة جديدة في بلدة مصرية قامت بها الطائرات الإسرائيلية مما أدى إلى مصرع أطفال ومدنيين أبرياء. تابعت شانتال الأخبار على غير عادتها، ثم التفتت إلى محب مستطلعة.

- هؤلاء القتلة. متى سيكفون عن هذه المجازر.

- أرجو ألا يؤثر ذلك فيك يا محب.

- كيف لا يؤثر في ؟

- أعرف ذلك. ولكنها الحرب بكل ما فيها من خسة.

- إني لم أكن أهتم بالسياسة، مركزا كل شيء في دراساتى وفنى. ولكن هذه الأحداث تحفر في نفسي آثارا عميقة من الأسى والحزن والغضب.

- أنا أيضًا أحاول الابتعاد عن السياسة قدر الإمكان. ولكن ما يحدث الآن مأساة أخلاقية لا يمكن السكوت عليها. انظر، يقولون إن العرب سيقومون بمظاهرة سلمية ضد هذا العدوان. أتريد أن نشترك فيها ؟

- كلا. هذا لا يفيد شيئًا. لقد شبعنا شجبا وإدانة وهتافات.

- معك حق. عليكم أن تفعلوا شيئًا بدلا من هذا الضعف العجيب. كيف وصل الحال بالعرب إلى هذا القدر ؟ لقد قصصتَ عليّ موضوع مخطوطك وإني لأعجب لماذا لا يظهر بينهم صلاح الدين جديد.

- كنا نعتقد هذا في القائد الحالي حتى أنهار ذلك الحلم في أيام معدودات. ولكني كنت أعرف أشياء رهيبة في تلك السنوات الماضية، مما كان العارفون بالأمور يتناقلونه همسا. وهذا ما أدى إلى ما حدث من هزيمة وتفكك.

- إني أذكر أيام حرب يونيو هنا، وكيف كان فرنسيو الجزائر شامتين في العرب ويهتفون هتافات مناصرة لإسرائيل على وزن هتاف " الجزائر فرنسية ".

- بالطبع. فقد كانت مصر أقوى مناصر للجزائريين في حرب استقلالهم.

- حسنًا. سوف نرى ما تؤول إليه الأمور. لا بد أن تحدث نهضة بعد تلك الكارثة. ولكن... فلنحاول أن ننسَ هذه الفظائع. قل لي، كيف تسير دراستك للمخطوط ؟

صمت محب قليلاً ثم استجمع تفكيره ثانية.

- على ما يرام.

- إني أفكر كيف أستطيع أن أعطيك نسخة من المخطوط دون إغضاب والدي لو عرف.

- لا تقلقي من هذا الأمر. إني مستريح في عملي، رغم أنني محرج من تطفلي على منزلك وعليك بهذه الصورة.

ردت شانتال ضاحكة :

- ولست محرجًا من تطفلك على جسدي وقلبي أيضًا ؟

قالت ذلك وهي تحتويه في أحضانها وتهبه جسدها وقلبها وعقلها. تحسس محب مفاتن ذلك الجسد وحاول أن يصل إلى أعماق روحها عن طريق غزو تلك المفاتن شديدة الخصوصية.

وفيما بعد واصلت شانتال :

- إني أحب أن تكون دائمًا معي يا محب. لا أدري ما حدث لي معك. لقد عرفت شبانًا كثيرين، ولكن عواطفي تجاهك مختلفة.

أحسّ محب بالنشوة، وغمره التواضع فحاول تغيير الموضوع.

- كيف تسير كتابة رسالتك عن توفيق الحكيم ؟

- مثل رسالتك : على مايرام. إني في الفصل الخامس منها الآن، وقد بدأت بعض التنقيحات في الفصول الأخرى طبقا لنصائحك لي وبعد المعلومات التي وجدتها في كتاب زهرة العمر الذي ما زلنا نقرأه معا. وقد كان مهما جدًا موضوع المحاضرات التي استمع إليها الحكيم في باريس، ومنها محاضرة جيمس جويس عن الشعر الإنجليزي، كذلك قراءته لعوليس. إن هذا قد غيّـر الكثير من استنتاجاتي عن المؤثرات التي تركت انطباعاتها في أعمال الحكيم.

- هيا بنا نقرأ ما تبقى من زهرة العمر.

- داكور.

وقامت شانتال لتحضر الكتاب، بينما محب يراقب جسدها وطبيعيتها في الحركة حتى وهي عارية. وأحضرت نسختين من الكتاب، واحدة معها والأخرى مع محب.

بدأ محب يقرأ ببطء : "... إن اعتراضات الجميع لا تتغير. لماذا تحاول أن تتكلف الأسلوب تكلفا ؟ "

شانتال : تتكلف؟ من الفعل تكلف. له علاقة بالتكاليف والثمن ؟

- لا لا. هذا معنى آخر. التكلف هو بذل الجهد على نحو مصطنع. إن المعنى صعب. دعيني أفكر في الكلمة الفرنسية الموازية. بالإنجليزية هي AFFECTED STYLE OF WRITING، أي أسلوب متصنع.

- أها... فهمت.

وقفز محب إلى صفحات أخرى :

" ولشد ما توهمنا أن الأسلوب الخاص معناه التجديد وأن التجديد معناه الإغراب. وبهذا الوهم كتبتُ حماقات كنت أحسبها شعرا. ونزعتُ إلى الإغراب خشية التقليد فإذا بي أقع دون أن أشعر في محاكاة "الداديزم" و"السورياليزم" و"الكوبزم" الأدبي. "

- هذا رائع. لا بد من الاستشهاد بهذه الفقرة، فقد عقدت فصلاً كاملاً عن التجديد في أعمال توفيق الحكيم، فهنا - رغم خوفه من المحاكاة، قد هدف دائمًا إلى "الإغراب" خشية التقليد. وقد

تناولت كتابه "يا طالع الشجرة" في ذلك الفصل خاصة، وسوف أضيف هنا تلك الفقرة وأحللها. لا أدري ماذا كنت أفعل بدون هذا الكتاب للحكيم. إنه يضع يدي على مفاتيح هامة. إني لأعجب كيف لم يلفت أستاذي البروفيسور نظري إليه ؟

- إنه كتاب غير معروف على نطاق واسع. لكني عرفته وأحببته منذ زمن، حين نـُشر في سلسلة كتاب الهلال في أوائل الخمسينيات.

- إني مدينة لك بهذا يا محب. وأنت كذلك تقرأ على نحو يجعلني أحفظ النص حفظا وأرى بوضوح كيف سأستخدمه في رسالتي.

- إني مدين لك بأكثر يا شانتال.

واحتضن الواحد منهما الآخر، وغرقا في الحب.

(١١)

القاهرة في ...

حبيبي محب

لا تدري كم اشتقت إليك بعد مرور هذه الفترة الطويلة التي لم أرك فيها. كذلك فإن خطاباتك قد تباعدت وأصبحت قصيرة في الفترة الأخيرة. ولكني أعذرك لأنى أعرف كم أنت مشغول الآن بعد عثورك على هذا المخطوط الجديد. اكتب لي أكثر عن تفاصيل عثورك عليه، فهو كنز كبير. أنا أيضًا مستمرة في رسالة الماجستير في اجتهاد، فهي التي تنقصنى كي ألحق بك في باريس ونجتمع معًا مرة أخرى. شكرا على ما أرسلته لي من كتب، فقد استعنت بها كثيرا، والدكتور عزيز المشرف راض عن سير رسالتي ويساعدنى فيها كثيرا، وقد قاربتُ على الانتهاء منها، وأعمل كل ليلة فيها. ولكن التدريس يأخذ معظم وقتى، فأنا مضطرة للتحضير طويلا للمحاضرات التي ألقيها على الطلبة. ولكني أمضى وقتا رائعًا مع ألبير كامى حين أعمل في الرسالة أو أطالع أعماله. لقد عشقت رواياته وكتاباته الجميلة، وأنا أحلم أيضًا بالمستقبل وموضوع الدكتوراة إن شاء الله في فرنسا، وبما وعدتنى به في خطاباتك بأن نذهب معًا إلى بلدة شارلفيل لنزور متحف رامبو الذي سأدرس أشعاره ونسير على ضفاف نهر " الميز " الذي طالما سار عليه. آه يا محب، كم اشتقت إليك. أرجو أن تكون

في أحسن حال، وتفكر في كثيراً كما أفكر فيك دائما، وألا تشغلك عني بنات فرنسا، وأنا أعلم إنك " ذواقة " في الجمال. حذار.

قبلاتي. وأنا في انتظار خطاب منك.

حبيبتك سهير

- ملاحظة : ما رأيك لو أننا حجزنا شقة منذ الآن في القاهرة لما بعد عودتنا من فرنسا إن شاء الله ؟ فأنا أرى أسعار الشقق سواء للإيجار أو التمليك ترتفع تدريجيًا بشكل كبير وأخشى ألا نتمكن بعد ذلك من الحصول على مسكن ملائم.



باريس في ....

حبيبتي سهير

أسعد جدًا بقراءة خطاباتك التي تحمل لي ذكريات حبنا معًا، وأطياف كلية الآداب حيث تعارفنا، وأخبار رسالتك التي أرجو أن تعملي فيها بجد واجتهاد.

أنا مستغرق في دراسة المخطوط الذي ذكرته لك، وإن كان يأخذ مني وقتا كبيرا، ذلك أن المكتبة التي وجدته فيها مكتبة خاصة ولا تسمح بتصويره، وهذا يسبب لي مضايقات كثيرة. ولكن يخفف عني ذكرياتنا في القاهرة، وجولاتنا فيها وفي الكزينوهات على النيل والأفلام

التي شاهدناها سويًا، خاصة في سينما روكسي (أتذكرين ؟) رغم ضنك عليّ بأبسط حـقوق المحبين.

من ناحية البحث عن شقة، أرى تأجيل ذلك الآن، فأمامي وقت طويل هنا ولا أدري متى سأعود وما ستكون عليه الظروف عندها. ولكن الأمر لك في هذا الشأن. وأرجو ألا تقطعي عني خطاباتك حتى لو قللت أنا من خطاباتي نظرًا لظروفي.

أهديك قبلاتي وسلامي.

- ملاحظة : ساءني جدًا ذكرك لأستاذك وإطرائك له في كل رسالة لك، ألا تلاحظين أن ذلك كثير جدًا !

محب

(١٢)

هكذا كان موقف محب الصعب. ومن المؤكد أن هذا الموقف قد مرّ به كثيرون من المبعوثين، فالبعيد عن الخطيبة أو الزوجة - مع الإغراءات المتاحة إذا كان المبعوث في بلد غربية - يساعد على نشوء هذا الموقف المحير. الكثيرون يقضون سنوات الغربة كما يحلو لهم، ثم يعودون إلى أوطانهم سالمين غانمين ويواصلون حياتهم الزوجية العادية. أما مع محب فكان الوضع مختلفًا، فخطيبته على وشك الحضور إلى باريس بعد عدة أشهر بعد أن تحصل على الماجستير. حاول جاهدًا أن يُبقي علاقته بشانتال مجرد مغامرة عابرة، وأن يعودا إلى العلاقة الدراسية الأكاديمية، ولكنه كان يشعر يومًا بعد يوم ولقاءً بعد لقاء، بأنه يغوص تدريجيًا داخل تلك الفتاة ويتعود عليها وعلى حبها وثقافتها بحيث أصبح من الصعب أن يترك هذا المجال الذي انفسح أمامه.

وفي جلسة من جلساته مع شانتال، وهو يقرأ لها سطورًا من "زهرة العمر"، وجد نفسه يقول لها فجأة دون إعداد مسبق : " لا أدري يا شانتال ماذا أفعل في مشكلتي ".

ردت شانتال : تقصد خطيبتك في مصر وأنا ؟

- نعم.

- لا مشكلة هناك على الإطلاق. لدينا حلول كثيرة.

- كيف ذلك ؟

- إمّا أن نفترق بعد حصولك على الدكتوراه وتعود إلى خطيبتك، وأزورك وتزورني حينما يتيسر ذلك.

وضحك محب...

- ويمكن أيضًا أن نتزوج ونقيم في مصر بعد أن تتزوج من سهير، فهذا مسموح به في بلدكم.

وضحك محب مقهقها هذه المرة.

- هذه حلول غير واقعية يا شانتال. أنت تفكرين بعقل فرنسي بحت. وأرى من الحل الأول الذي ذكرتِه أنكِ لا تحبينني بما فيه الكفاية.

- أنا متعلقة بك بالطبع، ولكني فرنسية ولا أعرف هذا النوع من الحب الذي ينحو نحو حب السيطرة والاستحواذ. هذا طبعًا هو الوله الشرقي الذي نسمع عنه.

ووجم محب. إذن فهو لايستطيع الاعتماد على حياة مستقرة مع شانتال، وهو أكثر أمانا مع سهير، سواء بقيا في فرنسا أم عادا إلى مصر بعد حصولهما هما الاثنان على الدكتوراه. ووجد أن الحل الأمثل في هذه اللحظة هي أن يستطرد في قراءته بعض سطور زهرة العمر والتعليق عليها.

" إن روح الكاتب أو الشاعر لتشف أحيانًا وتخف وتتحرك...

وغمره العرق الكثيف، وطافت روحه إلى أمكنة أخرى، فرأى نفس هذا الكتاب الذي يقرأ منه وقد ظهرت ترجمته إلى اللغة الإسبانية ومعروض في المكتبات، من ترجمة أستاذة إسبانية مستعربة، توفرت هي وأستاذها على ترجمة الكثير من الكتب العربية إلى الإسبانية. وأراد شراءه، فهو لا شك سيفيد شانتال فهي تعرف الإسبانية. ومد يده لتناول الكتاب من على منضدة العرض، فوجد يده تندفع في فراغ، وتكرر ذلك عدة مرات. وعندما بدأ يدرك أنه قد دخل في نوبة استشرافية من نوباته المتكررة، صحا فيها ووجد نفسه يقرأ لشانتال من الكتاب العربي كأنما لم يمض أي وقت عليه في تلك النوبة، مما جعله يتساءل بينه وبين نفسه عن الزمن الحقيقي الذي تستغرقه تلك النوبات، وهل تستمر وقتا أم أنها تغطى لحظة واحدة فقط كما يقول أهل الصوفية، وكما يعتقد هو من قبل. وعزم ان يدرس ذلك الأمر بعد ذلك.

"...وتتحرك في الأجواء بلطف كأنها نسيم راقص... هذا الشعور ملأ نفسي وبصرى أمام لوحة مثل لوحة ' الربيع ' لبوتيشللى الذي بصور فيها..."

وتدخلت شانتال : أهااا.. جميل أن يذكر الحكيم هذه اللوحة، ولا شك أنه درسها كذلك، ولا بد أن أذكر أثر كل تلك اللوحات في إرهاف شعوره الفني... ولكن، قل لي ما معنى كلمة ' تشف ' تلك؟

فشرحها لها محب، وكتبت شانتال الشرح في النسخة التي معها من الكتاب.

وبعدها، هتفت شانتال أنهما قد درسا اليوم بما فيه الكفاية، وعرضت على محب الذهاب لقضاء بعض الوقت في باريس فوافق.

* * *

انطلقت السيارة تتهادى في طرقات دوفيل حتى خرجت إلى الطريق السريع. ولاحظ محب الحقول الزاهرة على الجانبين، والقرى الجميلة اللتى يمران بها، والعلامات الإرشادية التي تحدد المخرج إلى الوصول إلى وسط المدن :

ها هما يخرجان من الطرق الفرعية إلى "الأوتو روت" الذي يربط المدينة بالطريق المتجه إلى باريس، ويعودان مرة أخرى إلى طريق فرعى فيمران على مدينة "ليزييه" التي تضم كاتدرائية ضخمة احتفاء بالرؤيا التي مرّت بها فتاة من المدينة تدينت منذ صغرها ووهبت نفسها للدير وظهرت لها كرامات كثيرة. وسألت شانتال "محب" إذا ما كان يريد أن يستريح في هذه المدينة، فأجاب أنه كان يريد من زمن أن يزور الكاتدرائية المشهورة. ولكن شانتال قالت إن من الأفضل مواصلة الرحلة إلى مدينة "بابيه" كي تريه النسج الشهير فيها وقصته التاريخية. وحين وافقها محب، انحرفتْ السيارة إلى الطريق الساحلى الذي يمتد على طريق شواطئ نورماندي المشهورة التي بدأ عندها نزول قوات الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، فيما أصبح اليوم ما يُعرف باسم "D-Day". وعبرا لافتات مدن صغيرة بينما كانا يتبادلان أحاديث عابرة، إلى أن بلغت السيارة الطريق

الفرعى المؤدى إلى مدينة بابيه وسارت فيه إلى أن وصلا إلى وسط المدينة فأوقفت شانتال العربة وخرجا لزيارة المدينة على الأقدام.

وأخذت شانتي تقص على مسامع محب تاريخ المدينة وهو لا يستوعب ذلك كليةً، فالتاريخ ملئ بالمؤامرات بين الملوك في المقاطعات الفرنسية والإنجليزية، وتشاغل بالنظر إلى الكاتدرائية القوطية الفخمة التي تتركز كالعادة في وسط كل مدينة. وذكّره ذلك بالعادة الإسلامية في قرى مصر بإقامة مسجد القرية في الوسط حتى يكون قريباَ من كل السكان. ودخلا إلى الكاتدرائية بعد أن أظهرت شانتال بطاقة تحملها أعفتهما من شراء تذكرة زيارة الأماكن السياحية في الداخل. وتطلع محب كعادته إلى الزوايا الجميلة داخل المبنى والزجاج الملون المعشّق فيها، وشموع النذور التي توجد في كل الكنائس، مع تماثيل المسيح والعذراء والرسل في كل الأنحاء. وجذبته شانتال سريعًا إلى الطرف الأقصى للكاتدرائية وهي تقول : "لا تهتم بهذا، فالأمر الذي جئنا لأجله ليس هنا". وحين خرجا، لاحظ محب بناية مقابِلة للكاتدرائية مكتوبا على بابها "منسوجة بابيه"، ودخلا إليها ببطاقة شانتي نفسها دون دفع شيء، وصعدت به إلى الطابق الأول من البناية.

وفوجئ محب بما رأى : دهليز طويل مضاءّ بنور خافت، وعلى الجدار فترينات زجاجية تعرض قطعة نسيج من الصوف المطرز تبدأ عند المدخل وتتواصل على طول الدهليز. كان نسيجا تاريخيا، كما عرف من شانتال؛ أمر بنسجه في القرن الحادى عشر أسقف بابيه

المدعو "أودو" وهو الأخ غير الشقيق لوليام، دوق نورماندي بشمال فرنسا، ويبلغ طوله ٧٠ متراَ وعرضه ٥٠ سنتيمتراَ. وسار محب وشانتال في الصالة المهيبة من مشهد إلى مشهد تصويرى للنسيج، من المشهد رقم ١ حتى الأخير رقم ٥٨، وهي كلها مشاهد تصور قصة مطالبة الدوق وليام بعرش إنجلترا. ذلك أن إدوارد - ملك إنجلترا - حين شعر بدنو أجله - أوصى بعرش إنجلترا بعد وفاته لوليام دوق نورماندي، وأرسل زوج ابنته هارولد في بعثة كبيرة إلى نورماندي لإبلاغ وليام بذلك الأمر. وتُصور مشاهد النسيج في أولها رحلة هارولد إلى نورماندي بفرنسا، ومساعدته لوليام في حربه ضد دوق "بريتانى" والانتصار عليه. ويقدم هارولد فروض الطاعة والولاء لوليام بعد إبلاغه بوصية الملك إدوارد. ولكن، بعد عودة هارولد إلى إنجلترا وفي أعقاب وفاة الملك إدوارد، يعلن هارولد نفسه ملكا لإنجلترا. وما ان يعلم وليام بذلك حتى يقوم بتجهيز أسطول ضخم وقوات كبيرة مع عتادها تمهيدًا لغزو إنجلترا. ويُصور النسيج إبحار السفن بالجنود والجياد والعتاد الحربى، ثم الإنزال في منطقة "هيستنجز" حيث تجرى موقعة القتال الشهيرة بين هارولد الأنجلوسكسونى ووليام النورماندي. وتنتهي المعركة بانتصار وليام "الفاتح" على جيش السكسون في ١٤ أكتوبر ١٠٦٦ ومقتل هارولد وارتقاء وليام عرش إنجلترا.

وأضافت شانتال معلومة جديدة إلى محب، وهي أنه حين بدأت القوات الأمريكية في دخول باريس عام ١٩٤٤ وكان يحتلها النازيون، جاءت أوامر هتلر للجنرال الألمانى فيها بتدمير المدينة.

وطلب القادة في ألمانيا جمع بعض الآثار الخالدة من المقتنيات الباريسية الخالدة والتي يمكن حملها من عيون الفن والتاريخ، لإنقاذها من الدمار وحملها إلى برلين. وكان على رأس المطلوب : منسوج بابيه !.

* * *

"وخرجنا من الكتدرائية وقد تشبعتُ بالمزيد من وقائع تاريخية لم أكن أعرفها، ومضيتُ مع شانتال يدا في يد إلى عربتها بعد أن اتفقنا على تناول الطعام في واحد من تلك المطاعم الأنيقة التي توجد في طريق العودة. وأنا شغوف جدًا بمثل تلك الأماكن التي أستطيع فيها أن أتأمل ما حولى في هدوء بينما أحظى بخدمة طيبة وأنا أسرح البصر في الأماكن المترامية أمامي على البعد وأنتقل منها إلى وجه شانتال الحميل. وكان المطعم من نوع النُزل الصغير، بطابق علوي للميت فيه على نظام "الموتيل" الأمريكى، فبعد الانتهاء من الأكل، تلاقت نظرات شانتال مع نظرتى، فابتسمنا وتوافقنا على قضاء الليل في هذا الفندق، للراحة بعد هذه السياحة الطويلة.

كانت الغرفة كما تصورتها تمامًا. أنيقة، انسيابية، هادئة. وملأت شانتال البنيو قى الحمّام الملحق بالغرفة. وبدأت مشاعرى تتجاوب مع خيالاتي الحسية المضطرمة، فتأهبتُ للتوجه إلى البانيو مع شانتال لآخذها في أحضانى. وإذ بي أرى نفسي جالسًا في أحد الكازينوهات على ضفاف النيل، وأمامي خطيبتي سهير. وحاولتُ أن أهز رأسى

وأغمض عيني وأفتحهما كي أخرج نفسي من تلك الرؤيا، ولكني أجد نفسي في المكان نفسه بالقاهرة. وكان ذلك الكازينو من الأماكن المفضلة لي ولسهير حين كنت ما أزال في القاهرة قبل سفري، لقربه من الجامعة ولهدوئه النسبي، فتقابلنا فيه كثيراً حتى أن الجرسونات فيه قد عرفونا. كنت كعادتي أشرب فنجان القهوة باللبن، وهي تشرب عصير البرتقال، وتطلب مني أن أخبرها بآخر استعداداتي للسفر إلى باريس، بينما أنا مشغول بموضوع واحد، هو كيف أخبرها أنني في تلك المرة أنوي السفر بلا عودة مرتقبة، وأننى لن أستطيع المُضي قدمًا في موضوع زواجنا.

- كم أنا سعيد برؤية القاهرة الآن، ومناظر النيل الجميلة التي تفوق ما رأيته من نهر السين الفرنسي.
- تقصد كما رأيت السين في الصور...أو كما تتمنى أن تراه حين تسافر إلى باريس...
- لا يا سهير...هل نسيتِ ؟ لقد سافرت فعلاً ورأيته...
- محب ! ما هذا الكلام يا حبيبي... لقد اختلطت عليك الأمور لا بد بسبب الضغط النفسي... "

وتاه محب في غمار الحيرة أهو ما يزال في القاهرة ولم يسافر بعد في بعثته الفرنسية ؟ كيف هذا ؟ وأين شانتال، وأين المخطوطة الثمينة التي عثر عليها والتي ستكون فتحًا علمياً له ؟ إنه بحق كابوس رهيب. وهو الذي طلب مقابلة سهير ليعترف لها بأنه لن يستطيع لإكمال قصة حبهما إلى نهايتها الطبيعية. هل يكون هذا

أيضًا من إشراقات الزمن التي تعتاده من حين لآخر ؟ وكيف يعود إلى حياته في فرنسا ؟ لا بد أن يتماشى مع ذلك الموقف إذن حتى تنبلج الحقيقة. عاد إلى حديثه مع سهير.

- أقصد أنني رأيت كل ذلك بعين الخيال. تعرفين أنني مشتاق إلى القيام بتلك الرحلة، لا من أجل الدكتوراة فحسب بل لأرى بعين الواقع مهاد الفن والحضارة التي درسناها في الكتب.

- وأنا أيضًا يا محب، عندي نفس الشوق وسأعمل على الانتهاء من دراستي هنا وألحق بك. كم سيكون كل هذا رائعًا حين نكون معًا هناك.

ودارى محب الغصة التي شعر بها عند ذلك، وتمنى أن يكون قد استمر في مصر واختار موضوعًا لرسالته لا يتطلب السفر إلى الخارج، دون أن يدخل في تلك التجربة الرهيبة التي تعصف بحياته وتضطره إلى خداع من أحب طويلاً؛ أو تكون قصته مع شانتال مجرد أوهام ولا يجدها بعد أن يعود من هذا البحران الزمني، وأن تكون في عداد العدم.

ولكن...

صحا على نداء شانتال تدعوه إلى البانيو، ففرك عينيه وقام متثاقلاً ليجد الماء قد ملأ البانيو الوردي الأملس، حيث تسبح فيه حورية من اللون نفسه. وأفاق تمامًا على ذلك الجمال الذي لا يمكن تحمل إغرائه، فترك أوهامه وخيالاته، وتأهب لتلبية دعوة الحورية...

(١٣)

"فحياة أسامة إذن تمثل لنا الفروسية الاسلامية العربية على ما ازدهرت في ربوع الشام في أواسط القرون الوسطى والتي بلغت حدها الكامل في صلاح الدين، وسيرته [أسامة بن منقذ] تتضمن موجز تاريخ البلاد في القرن الثاني عشر - قرن التجريدات الصليبية الثلاث الأولى، ومذكراته الموسومة ' كتاب الاعتبار ' مرآة تتجلى فيها المدنية الشامية في أجلي مظاهرها - وذلك ليس بحد ذاتها فقط بل بالمعارضة مع المدنية الافرنجية التي قامت إلى جوانبها.

" ولو أن أسامة عاش اليوم لكان بلا ريب عضوا عاملا في المجمع العلمي العربي، ولكان بيته ' صالونا ' للأدب بدمشق، ولراسل ' الهلال ' و' المقطم ' ولأكثر من العيش في الهواء الطليق يدرس طبائع الحيوان ويرقب نمو النبات، ولنالت جياده العربية جوائز السبق في بيروت، ولكان بلا تردد في أثناء الحرب العظمى دَيْوَن فرقة من المتطوعة تولّى قيادتها بنفسه ".

الدكتور فيليب حتّى

١٩٣٠

جلس محب إلى مكتبه في فيلا شانتال في دوفيل يتابع درسه ومطالعته لصفحات المخطوط النادر في انتظار شانتال كي يقرا معها المزيد من كتاب توفيق الحكيم. كان يضع أمامه أباجورة صغيرة ثمينة من صنع مدينة " باكارا " المشهورة بالبللور، وأمسك بيده عدسة مكبرة. كان ذلك ضروريًا لأن المخطوط – بطبيعة الحال – مكتوب بالطريقة القديمة المعروفة في عصره، بلا تنقيط يذكر ولا تشكيل، في كلمات تكاد تكون متصلة بعضها ببعض دون فواصل ولا فقرات مما نعهده الآن. كان ما يهمه أكثر من غيره تلك الصفحات الأولى الناقصة من مخطوط الإسكوريال، وينسخها بنصها ويتحقق مما ورد بها؛ وعليه بعدها أن يضاهي بقية المخطوط بما هو منشور من الكتاب بتحقيق البروفيسور فيليب حتّي. لام نفسه لتأخره في ذلك العمل نتيجة انشغاله مع شانتال بالرحلات والغرام، فعقد العزم على مضاعفة جهده في دراسته والعمل فيها بمثابرة لازمة.

وأدرك أن عليه أن يضع خطة لعمله في المخطوط، ففتح كراسة أمامه، واعتزم أن أن يبدا بكتابة كل كلمة ينجح في قراءتها في الصفحات الأولى النادرة التي احتواها. وبعد أن قرأ بصورة مبدئية عامة ما استطاع تفسيره من كلمات، اعترته دهشة التعرف وهزته، فهاهو أسامة بن منقذ يسرد تفاصيل مزيدة عن فرقة "الحشاشين" المشهورة في زمانه، وعن نظامها وطرق معيشة أفرادها وزعيمها "شيخ الجبل" وما ابتدعه لتجنيد رجاله وإغرائهم بكل متع الدنيا،وعن هجماتها على مدن الشام ونشرها الموت والاغتيالات فيها.

"ياله من اكتشاف ! كيف لي أن أحصل على صورة من هذه الصفحات، بل ومن المخطوط كله ؟ لن أستطيع أكاديميا إثبات اكتشافي إلا بتوثيقه بنسخة منه. لا بد أن أتفاهم مع شانتال في ذلك الأمر، ولو تطلب الأمر استئجار آلة تصوير الكتب، رغم ضخامتها وتعقيد العمل بها، على ألا تفسد المخطوط الأصلي الهش..."

(لم يستطع محب حتى بشطحاته الزمنية أن يرى كيف أصبح نسخ الصفحات والوثائق والكتب وكل شيء في لحظات وبأسهل الطرق وحفظها في ملفات ورقية ورقمية على شاشات الكومبيوتر الذي كان ما يزال في عالم الغيب في ذلك الوقت)

وفيما كان محب يقلب بحرص أوراق المخطوط كي يعرف أين تنتهي الصفحات النادرة وأين تبدأ صفحات مخطوط الإسكوريال، إذا بورقة تسقط من بينه، التقطها محب بحرص شديد لأنها تبدت من عصر غابر قديم، من ورق خاص يشبه الرقاع المشدود أو رق البارشمان. وتناول العدسة المكبرة وسلطها على الكتابة الموجودة في الرقعة التي بين يديه كي يرى ما فيها. وقرأ بصعوبة لأن الكلمات لم تكن واضحة :

مع هذا الابلاغ عهد لاتيني من فارس الداويين غليوم الغالى من فرقة الامبراطور فولك بن فولك للفارس الحمدى اسامة بن منقذ بالسماح له بالصلاة الحمدية بالمقر المتواجد داخل بناء قبة الصخرة حينما يكون عابرا اورشليم التي هي تحت حكم الامبراطور

وكان الرق ممهورا بإمضاء وختم

وذهل محب. كانت مفاجأة مهولة للمرة الثانية في اليوم نفسه فيما يتعلق بالمخطوط محل دراسته. كانت الورقة صغيرة منفصلة، لا بد أن أحدًا دسها منذ زمن بين صفحات المخطوط ولم يلحظها أحد من أصحابه السابقين ولا الحاليين. هل رأتها شانتال ياترى ؟ على الأرجح أنها لا تعلم شيئًا عنها، وإلا كانت قد أطلعته عليها. إنها أثر لا يقدر بثمن، هي والمخطوط وكل الكتب والمخطوطات التي بمكتبة أسرتها. ولكن، هل هي بحاجة إلى المزيد من الثروة التي يمكن أن تجنيها من ثمن تلك الكنوز ؟ كلا. ولكن يمكن أن تعتبرها من الآثار القومية وتهديها إلى المتاحف العديدة التي نزخر بها فرنسا.

لقد وقع محب في مشكلة عويصة طرحت نفسها بقوة على ذهنه : هل يجوز أن يخون ثقة شانتال به ويسرق تلك الرقعة التاريخية ؟ أم يطلعها عليها ويحاول إقناعها بأن تعطيها له ؟

وبينما هو غارق في أفكاره وحيرته، إذ بشانتال تدخل غرفة المكتب وهي ترشف من كوب للعصير. وارتبك محب لثوان وهو يطوى صفحات المخطوط فوق الرقعة التي عثر عليها، وأقبل يحيى صديقته ويرحب بها. كان يفكِّر في طريقة يستطيع بها أن يطلب منها أن تسمح له بتصوير المخطوط.

شانتال : هه...كيف تسير دراستك للكتاب ؟

محب : بصعوبة. تعرفين أن الكلمات غير منقوطة وبلا تشكيل. وليست هناك أي علامات ترقيم. وعلاوة على ذلك، سوف يضطرنى ما فككتُ من عبارات فيه إلى دراسة موضوعات تاريخية وفكرية كثيرة تناولها أسامة في كتابه.

- موضوعات ؟ مثل ماذا ؟

- إنه يتحدث في أول الكتاب عن فرقة الحشاشين...

فضحكت شانتال وصاحت :

- بالطبع ! لقد قرأت عناها حين علمت أن الكلمة قد انتقلت الى اللغات الأخرى بوصفها ASSASIN، واستغرقنى طابع السرية والفانتازيا فيها. كذلك قصة زعيمها شيخ الجبل مع نظام الملك وعمر الخيام.

- يبدو أنك على دراية واسعة بتلك الفرقة ؟

- أتعلم لماذا؟ لأنها كانت متصلة بالتنظيم المسمى "فرسان المعبد" The Knights Templar المشهورة هي الأخرى. وقد قرأت عن هذا التنظيم وسمعت بعضًا من أسراره من أفراد أسرتي.

- احكِ لي عنه يا شانتال، فأنا على يقين أنه ذات صلة بالفارس أسامة بن منقذ صاحب المخطوط.

- هذا مؤكد، برغم عدم معرفتي بذلك الفارس إلا من اسمه فقط. فتنظيم فرسان المعبد قد نشأ إبان الحروب الصليبية، في مدينة أورشليم. أنشأه تسعة فرنسيين يتزعمهم "هيج دي بيّانس" الذي تعود أصوله إلى كونتية " شامبانى "، الإقليم الفرنسي الذي

أنتمى إليه. فهو بالتالي من مؤسسى أسرتنا وإن كان ذلك في غابر الزمن. وهو أنشأ التنظيم عام ١٠٩٤ بغرض أساسي هو حماية الحجاج المسيحيين المتوجهين لزيارة المقار المسيحية المقدسة في أورشليم. وقد استمر التنظيم قويا ممتدا ثريا حتى عام ١٣٠٧ حين أقدم البابا بتحريض من ملك فرنسا فيليب الرابع على اتهام أفراده بالهرطقة وطاردوهم وأحرقوهم وصادروا أموالهم وممتلكاتهم، وهي حملة استمرت حتى عام ١٣١٤ حين أحرقوا زعيم التنظيم وقتها وهو جاك دي موليى.

وانفسح أمام محب من هذا الحديث آفاقًا واسعة بعد أن ضمَّ أطراف الموضوع الذي يدرسه بعضها ببعض. فأسامة بن منقذ قد ولد عام ١٠٩٥، أي مع مولد تنظيم فرسان المعبد. ولما كان مؤسسه من شامبانى، فلا بد أن كل تلك المخطوطات التي تمتلكها أسرة شانتال قد جاءت كلها منذ تلك الأزمنة القديمة، فهي أصيلة أصلية وغير مزورة.

محب : يا له من تاريخ !إن ذلك سيفتح أمامي موضوعات كثيرة متفرعة عليّ أن أدرسها. فمن المخطوط - الذي قرأته في طبعة الدكتور فيليب حتّي غير الكاملة - أعرف أنه كانت هناك علاقات بين الصليبيين - وخاصة لأفراد فرسان المعبد - وبين العرب والمسلمين الذين بقوا في المدن العربية التي احتلتها قوات الصليبيين وكذلك سكان المدن المجاورة التي لم تسقط في أيدى الصليبيين. هذا سيضاعف من موضوع دراستي كثيراً

- وهذا يملأني بالغبطة يا محب، فهو يعني أنك ستمكث هنا وقتًا أطول، وأنا قد بدأت أتعود عليك ولا أدري ما سأفعل حين تعود إلى مصر...

- حين أعود ؟ وليس حين تأتي خطيبتي لي هنا ؟

- كلا...فلا شك أنك ستبقى معي. لا تنسَ أن أساس دراستك هو عندي هنا...

وضحكت في سرور.

عندها أدرك محب أنه وقت غير مناسب كي يطلب منها أن يصور المخطوط أو يذكر لها موضوع رق البرشمان، وأن أفضل شيء الآن هو أن ينقلها إلى جو معاونته لها في دراستها عن توفيق الحكيم.

- لماذا لا نطالع قليلاً في الكتاب الذي تدرسينه ؟ لقد مضى وقت لم نقرأ فيه.

- وهو كذلك. لقد طالعت فيه وحدى عدة صفحات وكتبت معانى كلمات لم أفهمها جيدا. سأحضر الكتاب.

وحين تركت شانتال الحجرة، غادر محب مجلسه أمام المكتب وجلس على الأريكة.

وجاءت شانتال بالكتاب، وجلست إلى جواره، وفتحت كراسة معها وبدأت تسأله :

- المونولوج الداخلي؟ هل هذا هوLe Monologue Interieure؟

- نعم... أذكر أن الحكيم ذكر تلك العبـارة عند حديثه عـن جيمس جـويس.

- فعلاً...عن رواية يوليسيز. لقد حاول قراءتها بالفرنسيـة فلم أستسيغـها.

- إنها من كتب البحث والدراسة الروائية. أعرف أنهم يدرسونها في قسم اللغة الإنجليزية عندنا.

- قرأت لجويس روايته الأولى "ديدالوس" وأعجبتنى جدًا...

- "ديدالوس" ؟ هذا عنوانها بالفرنسية كما أظن. ولكن عنوانها الأصلي هو "صورة فنان شاب". إني مندهش للغاية كيف يقوم المترجمون الفرنسيون بتغيير عناوين الوايات الأصلية !

[ولم يكن يدري أن أحد أصدقائه سيقوم في عام ١٩٧٧ بترجمة رواية جارسيا ماركيز "لا أحد يكتب للكولونيل" عن الأصل الإسباني، مغيراً عنوانها إلى "الخطاب المنتظر"، بعد أن وجد أن العنوان الأصلي ثقيل بالعربية]

- وهناك عبارة "بدعة العصر" ؟

- مممممم...ما سياق العبارة بالضبط ؟ دعيني أرى...

وقرأ محب الفقرة ثم قال : أها، إنه يقصد بها الشيء المستجد الذي يطلع به البعض في وقت ما، كطراز جديد من الملابس مثلا.

وتناولت شانتال نسخة الكتاب وبدأت تقرا بلكنتها الفرنسية المحببة.

"على ذكر الأدب الإنجليزي أحب أن أقول لك أمرً لفت نظري منذ غرقت في دراسة هذا الأدب. إنه أدب مغامرات ولا يجب أن يُطلق عليه غير هذا الوصف: مغامرات بأوسع معانيها وأجملها وأشرفها. فأعمال والتر رالي سكوت ودانيال دفو "روبنسون كروسو " وروبرت لويس ستيفنسون "جزيرة الكنز" هي مغامرات بحرية. وأعمال ديكنز وجالسورثي هي مغامرات اجتماعية. وأعمال شكسبير وبيرون مغامرات نفسية إنسانية. وأعمال ماكولى وكارليل مغامرات تاريخية. وأعمال ويلز، في قصصه العلمي، وبرنارد شو خصوصًا في [Back to Methuselah شانتال : مكتوبة عندي بالإنجليزية فقط وهجاء خاطئ] ليست سوى مغامرات ذهنية. إن الأدب الإنجليزي مهما تشرحه تجد روحه وجوهره في كلمة " المغامرة "...

وقال محب : ترجمة عمل برنارد شو هي "العودة إلى متوشولح "...لم أمعن الفكر في فقرة الحكيم هذه من قبل. لقد كان فعلاً موسوعيًا أدبيًا في قراءاته إذ قرأ هذه الأعمال في لغتها الإنجليزية. غير أنني لا أوافقه على نظرته إلى الأدب الإنجليزي تلك بوصفه أدب مغامرات، فهو قد ذكر فحسب ما يعضد رأيه، ولكنه غفل عن أدب القرن التاسع عشر، بروايات جورج إليوت مثلاً، ومنها "طاحونة نهر فلوص" بما فيها من تحليل نفسي دقيق. ربما اعتمد الحكيم في رأيه على تأثر الكتّاب في دول الغرب -وليس إنجلترا فقط- بمغامرات ألف ليلة وليلة وأدخلوا بعض ذلك الأثر في رواياتهم...

- جميل ذكرك لرواية جورج إليوت. كم أحبها ! وقد ذكر مارسيل بروست أنه دومًا يبكي عند مطالعة بعض فصولها.

- هذا يدل على مدى حساسيته وتذوقه لما يعتمل في النفس الإنسانية من خواطر وانفعالات.

- أما ما ذكرته من أثر " الليالي العربية " - فهذا أسمها المشهور في الترجمات - في الآداب الأوروبية، فهو موضوع شائق للبحث فيه.

- عندك حق. هناك زميلنا سامح، وهو هنا يدرس مخطوطات ألف ليلة، وسوف أنبهه إلى هذا الجانب الهام كيما يضمه إلى بحثه.

[لم يكن محب يدري وهو يقول ذلك أن صديقه "سامح" بالفعل سوف ينشر كتابًا ضخمًا بعد ذلك عن أثر ألف ليلة في الآداب العالمية، ويلاقى نجاحًا ساحقًا، حتى أن إحدى الأديبات الأردنيات قرأته فكأنما وقعت على كنز "علي بابا"، فأخذت تقتبس منه وتنقل فقرات كاملة بل ونقلت موضوعًا كاملاً بنصه وحرفه ونشرته في عدد من الصحف باسمها]

ومضت شانتال ومحب يناقشان ما ذكره توفيق الحكيم حتى غطيا ما رغبت شانتال الاستفهام عنه في أواخر الكتاب.

- أودّ أن أعرف رأيك في ما ذكره الحكيم حين كتب " إني أضع دائمًا نصب عيني هذه المصادر الثلاثة أستلهمها فنيا : القرآن، وألف ليلة وليلة، والشعب أو المجتمع...ولكن الأسلوب.

الأسلوب. لطالما شغلتك معي بالحديث عن الأسلوب الفني الذي أبحث عنه ". هل ياترى يمكننا القول بأن الحكيم قد وفق إلى استلهام تلك العناصر الثلاثة التي ذكرها ؟

- أعتقد ذلك يا شانتال. لو نظرتِ إلى كتبه ستجدين أنه كتب عن موضوعات قرآنيه، مثل أهل الكهف، وكتب كتابه الضخم عن حياة محمد. وكانت ألف ليلة من موضوعاته المحببة التي ترددتْ كثيراً في مؤلفاته. وهو قد رصد هموم الشعب والمجتمع وأبرزها في رواياته، خاصة عودة الروح ويوميات نائب في الأرياف.

- رائع يا محب. أعتقد أنني سوف أنتهى من رسالتي قريباً، ولك فضل كبير في تشجيعي على المُضي فيها قدمًا كلما رأيتك عاكفًا على دراستك للمخطوط...

(١٤)

وقف رامي قريبًا من ردهة شقته الرحيبة الأنيقة يستقبل زواره. ولم يكن الزوار كثيرين، منهم أصدقاؤه وصديقاته المقربون، ومنهم الطلاب الدارسون الذين ارتأى أن يدعوهم كي يعرف منهم وينقل إليهم ما يريد. هناك أيضًا الكبار، باستثناء السفير الذي لا يحضر عادةً هذه الحفلات من أساسه.

كان هناك بوفيه مفتوح، وثمة نادلان يطوفان بصحاف من الكانابيه والمشروبات، فيما تجمعت حلقات من المدعوين فرّ أركان القاعة: البعض واقف، والبعض جلوس في المقاعد المتناثرة هنا وهناك. وكانت كميلة تتحادث مع هذا وذاك، وتتصرف كأنها في منزلها بغير حرج، بينما وقف محب مع سامح يتبادلان الرأي في المرحلة التي قطعها كلٌ منهما في الدكتوراه. واقترب منهما رامي يشارك في الحديث...

- أنا أحسدك يا محب، فموضوع دراستك محدد، تحقيق مخطوط تاريخي. أما أنا فمضطر إلى قراءة مئات الكتب التي يرجح أن مؤلفيها قد اطلعوا على ألف ليلة وليلة وتأثروا بها...

- صحيح. ولكن موضوعك جميل وسيجعلك خبيراً في الأدب المقارن.

*كيف حال دارِسينا الكبار؟ أصحاب أسامة ابن منقذ وشهريار؟

- أهلاً رامي بك. الحمد لله. وكيف حالكم والسفارة ؟

* عندنا الأمور سيئة، فالناس هنا شامتون فينا بعد النكسة، ويرون فيها انتقامًا لهم من مصر لمساعدتها الجزائريين في حربهم للاستقلال عن فرنسا...

- ونحن أيضًا نعاني من هذا الموقف الفرنسي من زملائنا وحتى بعض الأساتذة...

- نحن هنا في فرنسا في موقف لا نحسد عليه، والسبب هذا التهور الذي دفع بنا إلى تلك الهزيمة الماحقة...

* مهلا أستاذ سامح، تقصد النكسة

- أي نكسة ؟ أنتم طبعًا مع الموقف الرسمي وتتبعون ما يبتكره الصحفى الأوحد من تعابير

* وما تقول أنت يا أستاذ محب؟

- هي مأساة بكل المعايير. وقلبي مع سكان مدن القنال الذين تركوا مدنهم وأصبحوا لاجئين في وطنهم. طبعًا، هذا نتيجة العدوان الإسرائيلي الذي لا يفرق بين المدنيين والعسكريين...

* هذا هو الكلام...

- أي كلام يا رامي بك ؟ ولماذا لوحنا بالحرب ما دمنا غير مستعدين لها ؟ ولماذا لم يستمع القائد لرأي رئيس وزرائه ؟

* عن إذنكما، سأذهب لتحية الأخوة الآخرين...

سامح : أرأيت يا محب ؟ طبعًا هو ضمن الحكومة ويخشى حتى المناقشة البريئة. وهو يعلم أن هنا من يراقب من يتحدثون، تمامًا كما يحدث في مصر...

محب : الحق لا يعجب الناس. غير إني أحترم رامي جدًا وأعرف أنه رجل مثقف وفنان، ولم يأت هنا عن طريق الواسطة. على العموم، نحن هنا ندرس وواجبنا هو إتمام دراستنا والعودة إلى الوطن. وهناك، يمكننا المشاركة في العمل السياسي. أما هنا، فلا فائدة من ذلك.

سامح : لا، لا. إننا من النخبة، وواجبنا هو المشاركة في صنع الوطن. فإذا انعزلنا عن السياسة وبقينا في ذرى الأولمب، فقل على الوطن العفاء. أتعلم يا محب أنني أحمد الله على أنني لست في وظيفة حكومية هنا في باريس، فلا يتعين عليّ أن أحاذر في كلامى ولا في أفعالى كما يفعل رامي.

ولكن محب كان سارحًا بفكره بعيدًا عن حديث سامح، فهو لم يكن يشاركه اهتماماته السياسية، بل يتابع الأحداث ويهتم بمعرفة دوافعها وأسرارها من المقربين منها، ولكن كل ذلك كمجرد شاهد على العصر.

وتنقل ببصره بين الموجودين الذين كان يعرف معظمهم. وابتسم حين شاهد رستم يتحدث إلى مبعوث الآثار عادل عبد المجيد بانفعال وحدة، بينما الأخير يتطلع إليه باستغراب. لابد أنه يعيد عليه حديث الزودياك والسيد قشطة. وكان رستم يتجنب محب

ويشيح بنظره بعيدًا عنه إذا التقت عيونهما. ثم نقل عينيه ما بين كميلة ورامي، متسائلاً بينه وبين نفسه هل يكون هو حبيب كميلة وصاحبها الحقيقي، وتعجب أنها لم تفض إليه بسرها رغم أنه قد اختصها بكل أسراره، بما فيها علاقته بشانتال. ودار في ذهنه أن رامي هو الأصلح لها. ورأى أيضًا اثنين من الطلاب الملتحين، وإن لم ير زعيمهم الذي كان لا يرضى عن إقامة مثل تلك الحفلات التي يظن أنها يمكن أن تضم مشروبات المنكر !

ودخل ساعي المكتب الثقافي الذي كان يخدم الحفل إلى الصالون ليخبر رامي أن السفارة تطلبه على التليفون. فتوجه رامي إلى الداخل ليتلقى المكالمة ثم عاد بعد قليل مكفهر الوجه بادي الاضطراب. تطلع إليه جميع الموجودين وهو يعلن بصوت متحشرج: البقية في حياتكم. أعلنتني السفارة أن الزعيم جمال عبد الناصر قد توفى...



انتقل الكثيرون ممن تواجدوا في حفل رامي إلى مقر السفارة المصرية لتقديم العزاء والتعبير عن الحزن لفقدان الزعيم، وبقى رامي في البهو بوصفه عضوًا من أعضاء السفارة. لم يكن سامح من ضمن الحاضرين، ولا المصريين الملتحين. وقد سمع محب أحدهما يقول للآخر ببهجة مكتومة إنهما سيذهبان مع جماعتهم للاحتفال بهذا الحدث العظيم. ولم يكن محب يحب لك، فللموت حرمته مهما

كانت الظروف، ولكنه يعلم كم نكّل عبد الناصر بالإخوان وبالإسلاميين منذ عام ١٩٥٤. ولكن لا تجوز الشماتة في حالة الموت أبدا.

ورأى محب وزير الخارجية الفرنسي يدخل السفارة ويقدم تعازيه للسفير المصري، ويتجه إلى دفتر التعازى الذي وضعته السفارة بالبهو وكتب كلمات فيه. وهذا هو ابروتوكول والعرف الدبلوماسى. غير أن الدهشة انتابته حين رأى فرنسيين عاديين، يبدون في هيئة صغار الموظفين أو حتى العمال، يدخلون إلى السفارة ليكتبوا عبارات التعزية. وكان محب يرى أن ثورة ٥٢ قد بدأت في مسار جيد، غير أنها انحرفت عن ذلك المسار بسبب المطامع الشخصية وحب السيطرة والزعامة وتأليه النفس. لقد حققت الثورة بعض العدالة الاجتماعية بالنسبة للعمال والفلاحين والفقراء عامة، ولكن تلك العدالة لم تكن مدروسة، ولم توضع لها خطة تؤمن نجاحها وثباتها، مما نتج عنه تفتت مساحات الأرض الزراعية، وتدفق الالاف على الجامعات والتعليم العالى دون استعداد أو تخطيط مما أدى إلى هبوط المستوى التعليمى؛ ثم خطة الالتزام بتوظيف الخريجين الذي انتهى إلى تضخم العمالة الوظيفية غير المنتجة. أما سيئات الثورة، فحدث ولا حرج : إلغاء الديمقراطية تمامًا، تفشى النفاق والمحسوبية والوساطات، سيطرة الضباط على كل مناحى الحياة في مصر، الدخول في حروب لا طائل من ورائها. وقد أدى لك إلى عدم تحقيق أي بند من بنود أهداف الثورة الستة. وأدى الانفراد بالرأى الواحد إلى

الدخول في حرب ٦٧ التي خرّبت البلاد وهجّرت العباد وأسقطت ثقة المصريين في قادتهم وأحلامهم وتاريخهم.

وانتهز محب وصول التليفزين الفرنسي إلى السفارة لتسجيل كلمة من السفير وتسلل خارج المبنى. كان الليل قد هبط، والأنوار تشع من كل مكان في ذلك الحي الأنيق. وتوجه ناحية الحي اللاتيني عله يرى بعض الأصدقاء هناك. فصادف في طريقه " سامح " يتمشى وقد وضع يديه في جيبه، فحياه وسارا معًا في صمت، قطعه محب متسائلاً :

- ترى ماذا سيحدث لمصر. من سيخلف عبد الناصر ؟
- من سيخلفه ؟ واحد من الزمرة نفسها.
- نائبه الوحيد الآن أنور السادات.
- يا لبلدنا المنكوب....
- مهلا يا سامح. مصر في مرحلة رهيبة ولا تحتمل تغييرات الآن، ومن يدري : يجعل سره في أضعف خلقه.
- كنا نناصر عبد الناصر وندعمه فألقى بنا في غياهب السجون، ولو جاء السادات فسيلتف حوله الإسلاميون بما عرف عنه من دوره في المجلس الإسلامي، ولذلك فنحن لا نصيب لنا من مناصرينا ولا أعدائنا.
- لا حل إلا بالديمقراطية الحقيقية وتنوع الأحزاب. ولكن للأسف لن يكون عندنا تلك الديمقراطية إلى أن نقضى على الأمية في

بلادنا، فكيف ينتخب معظم المصريين وهم لا يعرفون قراءة ولا كتابة.

- بالفعل يا محب، لقد نادينا دومًا بالتعليم والعلم، وبالديمقراطية، وكان نتيجة ذلك أن جاءوا لنا بجندى أمى يعلمنا الاشتراكية، وكان فينا الدكتور لويس عوض. أرأيت شيئًا مثل ذلك أبدًا ولا في الروايات !

- لا والله. أنا أعلم ذلك، فأنا كنت أتقصى الأخبار خفية ولكن لم أشارك في شيء لسياستى في إتقان عملي الأدبي والفني فحسب. وأرى الآن بالفعل كم أوردتنا سياسة السنوات الماضية موارد الهلاك، وكل ما أرجوه أن يعمل القوم على وضع البلاد على الطريق الصحيح ثانية.

- هذا أمل ضعيف جدًا يا محب. فالزمرة هي القابضة على نواصى الحكم، ولن يحيد من يخلف عبد الناصر عن سياسته أبدًا ماداموا هم هناك.

- ولكن لا تنسى أن بلادنا محتلة، ويجب على من يتولى الزمام إعادة أرضنا إما بالحرب أو السلم.

- هذا صحيح. وقد سهّل ناصر الأمر بقبوله مبادرة روجرز قبل موته، فلعل ذلك يكتمل بعودة ما فقده على نحو سلمى.

- هذا يتفق مع نظريتكم منذ أيام حدتو. وأنا أرجو ذلك أيضًا بشرط عدم التفريط في أي شيء من أرضنا أو سيادتنا.

- وكل ذلك سوف يتيح للرئيس الجديد أن يستمر في رفع شعار "لا صوت يعلو فوق صوت المعركة"، ليستمر هو في وضعه الدكتاتوري.

- ندعو الله ألا يكون الأمر كذلك يا سامح.

- لو تحقق ما أقوله، فأفضل شيء هو أن أستمر في حياتي هنا حتى ينبلج بصيص من الأمل في الديمقراطية في مصر، وأنا أنصحك بأن تفعل الشيء نفسه.

- إن عليّ واجبًا تجاه أستاذي في جامعة القاهرة ويجب ألا أخذله.

- أنني في نفس وضعك تجاه أساتذتي، ولن أخذلهم حتى وإن بقيت في فرنسا.

- على العموم، دعنا لا نستبق الأحداث. سنرى ما قسم الله لمصر.

(١٥)

القاهرة في ١٢ مارس

حبيبي محب

أبشرك أولاً بأني قد ناقشت رسالة الماجستير أمس وحصلت عليها بتقدير ممتاز، وذلك بفضل توجيه وتشجيع أستاذي الدكتور عزيز. وكانت المناقشة رائعة وسلسة، وامتلأ المدرج على سعته من طلاب القسم ومن محبى ألبير كامى.

وقد أخبرني الدكتور عزيز بأن البعثة على منحة التي حُجزت لي قد تمّ تفعيلها، وسوف أملأ أوراق السفر قريباً إن شاء الله. ولكني رأيت أن الجامعة الفرنسية التي قبلتْ التحاقي بها والتي اختارها لي الدكتور عزيز ليست في باريس وإنما في "ليون" وهذا ما بعث في نفسي القلق لأنك في باريس، فكيف سنكون معًا ؟

ما رأيك في أن أتم هنا في القاهرة إجراءات زواجنا عن طريق التوكيل حتى نتجنب تعقيدات الزواج بالخارج، فما رأيك ؟

أتعشم أن تكون في خير حال، وأن تكون السيدة التي اكتشفت لديها مخطوط أسامة بن منقذ تعاونك كما تعاونها، ولكن حذار من فتنة الفرنسيات واغوائهن، فأنا أدري بمكرهن.

أنا أضحك معك فقط فلا تهتم.

مع قبلاتي

حبيبتك سهير

* * *

باريس في ١ أبريل

حبيبتي سهير

آسف لتأخري في الرد فلم تصلني رسالتك إلا أول أمس وعليها أختام الرقابة، وهو ما سيتم مع رسالتي هذه لك.

ألف مبروك لحصولك على الماجستير وهذا أسعدني جدًا ولقرب سفرك إلى فرنسا. لا أعلم لماذا يدخل شخص مثل الدكتور عزيز في كل شؤونك على هذا النحو المبالغ فيه ؟ ولماذا تقبلين ذلك ؟ ولماذا اختار عزيز دراستك في مدينة ليون وليس باريس أو مدينة قريبة منها. لا بد أنه فعل ذلك عن قصد. لقد أثار ذلك في نفسي أمورًا كثيرة كانت قد ذهبت إلى أعماقي. هذا يجعلني أتردد في عقد قراننا في مصر قبل وصولك، فإن ذلك لن يتفق مع استقرارنا معا، ويجب أن تحاولى نقل دراستك إلى باريس. وحتى إذا جئتِ هنا فسوف نبذل الجهود للتحويل إذ لا يمكن أن نكون زوجين وأنا في باريس وأنتِ في ليون البعيدة. وأعتقد أن علينا أن ندبر لك عملا هنا مع دراستك، فأنت تعرفين مدى تكلفة الحياة في فرنسا.

أنا بخير والحمد لله وأعمل في تحقيق المخطوط ودراسته بدأب ونشاط.

حبيبك محب

(١٦)

" فمن أجل هؤلاء قال لويس عوض الشعر، وهو ليس بشاعر، وهو يعِد بألا يكرر هذه الغلطة ولو نفي في بلاد الخيال. ولو أنه أراد الآن أن يقرض الشعر لما استطاع، فقد انقطع عنه الوحي منذ أن عاد إلى مصر في الخامسة والعشرين، ولو أنه أراد الآن أن يقرض الشعر لما استطاع، فقد أجهز عليه كارل ماركس، ولم يعد يرى من ألوان الحياة الكثيرة ومن ألوان الموت الكثيرة إلا لونًا واحدًا، وغدت أمامه الحشائش حمراء والسماوات حمراء والرمال والمياه وأجساد النساء وأحاديث الرجال والفكر المجرد كلها غدت أمامه حمراء بلون الدماء، حتى الأصوات والروائح والطعوم غدت حوله حمراء كأنما شب في الكون حريق هائل. وهو راضٍ بأن يعيش في هذا الحريق، فمن رأى السلاسل تمزق أجساد العبيد لم يفكّر إلا في الحرية الحمراء... "

الدكتور لويس عوض

بلوتولاند وقصائد أخرى من شعر الخاصة

١٩٤٧

" لماذا لم تصبح مصر بلدي كمثل فرنسا، وقد كانا متشابهين في العشرينيات والثلاثينيات ؟ إني أشعر بالسعادة لأنى عاصرت الأربعينيات والخمسينيات حيث كانت مصر ما تزال جميلة ونظيفة والناس طيبة ومتسامحة. آه يا سامح، ها قد تغير النظام ولا ندرى هل سيسير السادات في طريق ناصر أم سينتهج سياسة أخرى تضمن بعض الديمقراطية والأمان الداخلي لشعب. على الأقل، أرجو أن يكون في زوال حكم عبد الناصر ومجموعته التي أطلقوا عليها " مراكز القوى " أمانا لي في استمرار بعثتى في الخارج، فقد كنت قد علمت أن هناك تقريرا يتم إعداده بشأن بعض الدارسين غير المنتمين للنظام تمهيدًا لإلغاء ابتعاثهم، لا ندرى من أعده، وإن كنت أعلم أنه لم يكن للمستشار الثقافي ولا لرامي دخل في ذلك الموضوع. ها قد استعرت أول أجزاء ترجمة ريتشارد بيرتون لألف ليلة لأطالع فيه وأنا أستمتع بالجلوس إلى أحد مقاهي مونبارناس الرائعة. منذ صباى وأنا أحب القراءة وسط الضجيج أو وأنا أستمع إلى الراديو، فلا يهمني ضجة البولفار هناك ولا سير الناعمات الغيدا أمامي وأنا أقرأ.

آه يا سامح. لقد عانيتَ ما عانيت من أجل آرائك ومبادئك ضد الظلم والسلطة الغاشمة، وقضيت سنين في المعتقلات من أجل ذلك، وتمثلتَ بأساتذك العظام في تحمل الآلام والتعذيب، ولكنك لم تصدح بمدح من فعلوا بك ذلك كبعضهم، فأنت دومًا كنت مع الحرية والديمقراطية. وحين دخلت في دنيا الأكاديميين، لم يكن غير من آمنوا بقدرتك الأدبية والفكرية الذين " ضمنوك " لدى السلطات حتى

يسمحوا لك بالحصول على بعثة جامعية للدراسة بفرنسا. وقد حرصت على ألا تسعى للعمل في أي جهة مصرية بباريس كي تكمل دخلك كما يفعل الكثيرون، وعملت بالجامع الكبير وهو يضم كل العرب والمسلمين ".

وحين وصل إلى مقهى "الدوم" وجد هناك صديقًا ورفيقًا عزيزًا، فذهب إليه وحياه...

- بونجور هنري.
- أهلاً سامح. ما وراءك مع التطورات الأخيرة في مصر ؟
- من ناحيتنا، هي تطورات ليست في صالحنا. السادات يمقت اليساريين، وأطلق سراح الإسلاميين كي يقضوا عليهم.
- كنت آمل أن يكون هناك فرصة لي لأعود إلى مصر آخر الأمر.
- لا... الآن أصعب من أيام عبد الناصر. على الأقل، كان عبد الناصر قد قرأ عنك منذ أن قام الجيش بحركته.
- ولكن انظر ماذا فعل بحركتى.
- لقد فعل ذلك بكل من حاول أن يظهر منافسا له. ولا تنسى أن " حدتو " كان لها شعبية كبيرة بين العمال والموظفين. لقد كنتَ مؤمنا مخلصا بمصر وبحركة ٢٣ يوليو وبعبد الناصر، ولكن لم يشفع لك ذلك.
- لقد فعلت له أكثر من ذلك. لقد أرسلتُ له خطة العدوان الثلاثي كاملة قبل أن يبدأ تنفيذه، ولكنه لم يصدقني.

- بالمناسبة، كيف عرفت بأنباء هذا التحالف بين فرنسا وإنجلترا وإسرائيل ؟

- هذه قصة طويلة سأحكيها لك في فرصة أخرى. وقد أرسلت بأنباء ذلك إلى عبد الناصر ولكنه لم يصدق ذلك إلا بعد فوات الأوان.

- وهل مازلت مؤمنًا بتحول مصر إلى الشيوعية أو اليسارية ؟

- طبعًا. إنها الحتمية. لو كنا قد نجحنا في مساعينا لوفرنا على مصر كل تلك الفواجع التي مرت بها. وقد منحتُ الحرية ومصر حياتي وكل ما أملك، وجاهدت من أجل استقلال الجزائر وقدمت لها قصرى بالزمالك ليكون مقرا لسفارتها في القاهرة. وها أنت ترى مصيري ها هنا محرومًا من العودة إلى بلدي مصر. ما علينا، أراك بخير يارفيق...باي.

وحين قام مودعًا، لمح سامح محب قادمًا فلوّح له بيده داعيًا إياه للجلوس معه.

- أهلاً يا محب. كيف الحال ؟

- عندي عدة مشاكل يا سامح، ولكني دائمًا أقول الحمد لله.

ثم سأله بطريقة عارضة : من هذا الشخص الذي كان معك ؟

- ألا تعرفه ؟ إنه هنري كيرييل.

- ماذا ؟ كوريل المصري إليهودى الذي أنشأ حزب "حدتو" ؟

- أجل، لو كنتَ تقدمت قليلاً لعرفتك به. إنه علم من أعلام عصرنا الحديث. انا أنطق اسمه بالفرنسية الصحيحة ولكني أعرف أنه معروف لدى المصريين باسم كوريل !

- أنت تمزح بالتأكيد. إن هنري كوريل قد أغتيل هنا في باريس.

- هههه. أنت الذي تمزح يا محب. لا"تُفوّل" على الشخص يا رجل.

- أفوِّل ؟ إن قبره هناك في "بير لا شيز"، وقد رأيته بعيني إلى جانب المشاهير هناك.

- لا بد أنك جننت.

وجفل محب وصمت، إذ أدرك أنه ولابد قد عرف ذلك في غيبوبة من النوبات التي تفاجئه، ولكنها هذه المرة شيء جاد، غاية في الخطورة، ولا يدري كيف يتصرف فيه. وبادر بتغيير موضوع الحديث مع سامح.

- كيف تسير دراستك عن ألف ليلة ؟

وصمت سامح قليلاً ثم رد:

- على ما يرام. بدأت الآن في قراءة ترجمة ريتشارد بيرتون لها، وتصفحته فوجدته يكتب كلاما غريباً جدًا عن القصص، وهذا وحده يستحق دراسة كاملة.

وقال محب ضاحكا :

- ألم تجد في القصص آثارا للأفكار الشيوعية أيضًا ؟

فرد سامح هازجا : أؤكد لك أنها موجودة....

وضحك الاثنان.

وحين غادر محب المقهى، طلب سامح زجاجة بيرة مثلجة، وفتح كتاب بيرتون بترجمته لألف ليلة وبدأ يكمل قراءة المقدمة التي كتبها المترجم.

وشيئًا فشيئًا، تأكد لسامح أن بيرتون يستعرض معلوماته عن الشرق والعرب والمصريين بكل وسيله؛ وهو يسرد الترجمات الإنجليزية السابقة على ترجمته ويظهر ما فيها من نقص وضعف، ولا يستثنى إلا ترجمة " جون بين " التي ظهرت قبل ترجمته بقليل في تسعة أجزاء، ويعترف بأنه استفاد منها. ولما دقق محب في أوائل صفحات الترجمة البيرتونية، أخذ يضحك مقهقها، إذ وجد حواشى عديدة للمترجم، يشرح فيها كثيراً من العادات والأعراف الجنسية على نحو مبالغ فيه ولا يرقى إلى أي معرفة علمية موثوق بها. وتعجب من ترجمته لبعض الكلمات والصفات العربية، مثل كلمة " كواعب "، وترجمته لما جاء في النص العربي من شعر، بشعر مماثل. وانتهى إلى الرأي بأن تلك الترجمة لن تضيف شيئًا إلى دراسته، ولكنها تحتاج إلى دارس يقوم بالتعليق عليها وعلى الحواشى والإضافات التي قام بها المترجم من عندياته، فهي تصلح لبحث مستقل.

(١٧)

سار محب في الحي اللاتيني وهو مشغول البال بقرب وصول خطيبته سهير، يفكِّر فيما يمكن أن يفعل، وقد أثار ذكر سهير لأستاذها الدكتور عزيز غيرته السابقة من صلتها به قبل أن يخطبها هو، وعادت إلى ذاكرته محاولاته الدؤوب كي لا يتحول اعجابها لعزيز إلى حب، ونجاحه في شغل قلبها وموافقتها على الخطوبة.

وجذب انتباهه عنوان سميك بجريدة الموند المعروضة على جوانب الأكشاك، فلم يحاول قراءته إلا بعد أن رأى داخل المقال صورة لتمثال فرس النهر الفرعونى. واقترب عنده من الكشك وقرأ. وانتابته رعدة مفاجئة. اشترى الصحيفة وهرع إلى أحد المقاهي ليقرأ على مهل. كان العنوان السميك يقول " سرقة أثمن تماثيل فرس النهر من اللوفر ". وتابع القراءة : " اكتشف المسؤولون عن إحدى غرف المقتنيات الفرعونية باللوفر مكانا شاغرا كان به تمثال فرس النهر. ورغم أن تمثال فرس النهر الفرعونى ذا اللون الأزرق الباهر له أمثلة عديدة موجودة في متاحف العالم، فإن هذا التمثال المفقود له قيمة ثمينة، من حيث جودته والحفاظ على ألوانه وأجزائه سليمة مكتملة. ولم يصرح أي مسؤول بالمتحف عما حدث للتمثال ولم يفسروا سبب فقده ".

وخفق قلب محب، فقد انتقل فكره منذ اللحظة الأولى إلى ذلك الطالب المصري الذي قابله في مقهى مونج، والذي سأله عن ذلك التمثال. وهو قد رأه مرة أخرى في حفلة الأستاذ رامي يتحدث مع خبير الآثار عادل عبد المجيد. رستم. نعم : رستم، اسمه رستم. وكان قد تحدث عن نيته سرقة التمثال انتقاما لما علمه من نهب البعثات الأثرية ومنها الفرنسية للعديد من الآثار الثمينة في مصر. ولكن : هل يكون هو من سرق التمثال ؟ وكيف تمكن من ذلك في واحد من أعرق المتاحف وأكثرها منعة وحراسة ؟ هل هو فعلا أم شخص آخر ؟

ولم يجد حلا للخروج من حيرته إلا التوجه إلى مقهى المصريين عله يعثر على رستم أو يسمع معلومات عنه. وحين دخل المقهى وتفرس في الموجودين به، لم يكن رستم بينهم. وحيا من يعرفه هناك، واختار أن يجلس مع عادل عبد المجيد لمعرفة إن كان يعلم شيئًا عن تلك الفضيحة.

- أهلاً أستاذ محب.

- أهلاً بك. أرجو ألا أكون متطفلا عليك.

- بالعكس، مرحبا بك.

- هل علمت بما حدث ؟

- تعني سرقة تمثال فرس النهر ؟ بالطبع قرأت الخبر في الصحف منذ قليل.

- وبالطبع تعلم ما قد خمنته أنا.

- تقصد رستم ؟

- نعم. وأعلم أنه قد يكون حادثك في رغبته بالانتقام ممن سرقوا الآثار المصرية.

- صحيح. ولكن هذا لا يعني بالضرورة أنه وراء ما حدث. كما أننا لا نعلم كيف فُقد التمثال، فقد يظهر في مكانه ثانية. تعلم أن سرقة أي شيء من اللوفر ليست بالأمر السهل.

- أعلم. ولكن تصميم ذلك الشاب كان عجيبا. وللمصريين ذكاء غريب في تلك الأمور !

- هل حادثك أنت أيضًا في ذلك الموضوع ؟

- أجل. وباستفاضة وصراحة. كان ذلك يوم كنت أنت تحادثنا عن الزودياك وسرقته ونقله إلى فرنسا. وقد قال لي أنه لا بد من الانتقام من ذلك، بل وحدد الهدف بسرقة تمثال فرس النهر. كان يسميه تمثال سيد قشطة.

فضحك عادل وبادله محب الضحك.

عادل : انه مجرد طالب خائب. ولكن يبدو من قولك أنه قد يكون وراء ما حدث.

- وهل ترى أنه يجب علينا أن نفعل شيئًا ؟

- بالطبع.

- وماذا تقترح ؟

- أولا، علينا العثور على رستم وإقراره إن كان هو من أخفى التمثال أو سرقه. فإذا كان هو الفاعل، يجب أن نقنعه بإعادته.

- هذا صعب جدًا من كل النواحى. فحتى إذا اقتنع، فكيف لنا أن نعيده بحيث لا يجرنا ذلك إلى أي عواقب.

- سنترك التفكير في ذلك لما بعد التأكد أن رستم هو من سرق التمثال ومعرفة ماذا فعل به.

- أوكي. ولكني أعتقد أنه سيتجنب الحضور إلى هذا المقهى الأن.

- سوف نسأل أصدقاءه عن عنوانه، وإذا لم يظهر قريبًا ذهبنا إليه حيث يقيم.

- موافق.

- سأقوم أنا الآن لأنى على موعد. وأراك هنا غدا إن شاء الله.

وبقى محب يرتشف القهوة باللبن ويغرق في أفكاره. وبعد وقت وجد كميلة جالسة معه هاتفة به :

- اصح ! ماذا بك ؟

- أهااا....كميلة ؟ متى جئت ؟

- منذ دقائق. ظننت أنك في إحدى تلك الرؤى.

- لا يا كميلة. هناك مشكلة أمامنا.

- مشكلة ؟ قل لي...

وحكى لها محب قصة رستم من أولها إلى آخرها وهي تنصت باهتمام وإن كانت مندهشة.

- ولماذا تتدخل في شيء كهذا ؟

- لماذا ؟ هذا سؤال غريب. إنه أمر يتعلق بجريمة أعلم من مرتكبها.

- إنك تدهشني يا محب. أنت وغيرك ممن هم على شاكلتك. أنت فنان، ليبرالي، تهتم بالفن والأدب، وتتابع السياسة ولكن دون أن تشارك فيها. وأنت تمن بالمثل العليا وتؤمن بالدين حتى وإن لم تقم بكل فروضه. وها انت تتدخل في مسألة التمثال المسروق لأنها جريمة لا ترضى عنها، فهي تخرق القانون الأخلاقي. ولكن...أنت تخرق القانون الأخلاقي في أشياء خاصة دون أي تردد. فكيف تفسِّر ذلك الأمر ؟

- أنت تقصدين قصتي مع شانتال بالطبع...

- طبعًا. أنت لك خطيبة في مصر، وقلت لي كم تحبها وكيف جاهدت حتى جذبتها إليك...

- هذا صحيح. وهو أمر غريب بالفعل. إن أمور الحب والفتيات لدينا نحن شبان هذا الجيل تتناقض بالفعل مع عقائدنا ومبادئنا. لقد وضعتِ يا كميلة يدك على صفة خطيرة من صفاتنا...التى يبدو أنك على حق فيها. أنا أذكر أن أستاذنا وصديقنا العزيز فيه هذه الصفة نفسها، ويبدو أن من أحاطوا به ونحن في مصر قد تأثرنا به من تلك الناحية. ولكن لا تنسي يا كميلة أنكِ مثلي وأكثر...

قال محب الجملة الأخيرة ضاحكًا

- أكيد، فأنا من جيلكم ذاته

- ولكنك أصغر سنًا...وهذا جميل.

- أعتقد أن ذلك التضاد شائع عند المصريين كافة. أقصد أن المصريين مشهورون بالتدين، ولكنه في رأيى تدين ظاهرى شكلى. فمعظمهم يؤدون الصلاة ويقومون بأداء فريضة الحج، والكثير يعتمرون أكثر من مرة. ولكن، حين يتعلق الأمر بأى فائدة مالية أو وظيفية، أو مغامرات نسائية، فأكثرهم لا يترددون في اقتناص الفرصة لمصلحتهم حتى ولو كان لك مخالفا للعدل أو الشرع أو المنطق.

[ولم يكن محب وكميلة يدريان أن صديقًا لهما من نفس الجيل سوف يصدر كتابًا عن ذلك الجيل، يصف فيه أفراده كما يلي : ...إن أفراد ذلك الجيل قد عاصروا أحداثًا جسامًا في تاريخ وطنهم وأمتهم والعالم أجمع. فهم قد عاصروا الاحتلال البريطاني لمصر، وعاشوا عبر خمس حكام لبلادهم : الملك فاروق، الرئيس محمد نجيب، الرئيس جمال عبد الناصر، الرئيس أنور السادات، الرئيس حسنى مبارك. وهم قد عاصروا حروبا كثيرة : الحرب العالمية الثانية، حرب فلسطين ١٩٤٨، العدوان الثلاثى، حرب ١٩٦٧، حرب ١٩٧٣. وقد تأثر كل فرد من أفراد جيل الستينيات بتلك الأحداث على نحو مختلف، كما أن منهم من انخرط في العمل السياسي، ومنهم من راقب الأحداث ودرسها دون أن يتّبع جماعة معينة أو ينقاد إلى أيديولوجية تعمى أبصاره عن أفكار الحياة...].

وتذكر محب أمرً ما :

- بالمناسبة، سهير ستصل قريبًا إلى فرنسا.

- جاءك الموت يا تارك الصلاة.

وضحك محب.

- لا أدري إن كان يمكن أن تقيم معك عدة أيام.

- هذا جديد عليك. وما يحدث إن أقامت معك حتى تتزوجا...

- إن جامعتها في ليون، ولا أدري ماذا سنفعل.

- ههههه...ألن تتزوجا حال وصولها ؟

- لا أعتقد ذلك. هناك أمور لا بد من استجلائها أولا.

- أية أمور ؟ إنها شانتال ولا شك.

- لا. شانتال تعلم بوجود سهير. ولكن موضوع ليون ذاك يقلقنى. الأستاذ المعجب بسهير يزور ليون سنويا لإلقاء محاضرات هناك. وهو الذي اختار لها تلك الجامعة بدلا من السوربون.

- أها...إذن هي الغيرة !

- لا أدري ماذا أفعل يا كميلة.

- طبعًا أهلا وسهلا بسهير معي في أي وقت. ولكني قلقة من ملابسات الموضوع كله، وكيف ستتفبل سهير ذلك التأجيل.

- عندها فكرة بالفعل. وأنا قلق أيضًا يا كميلة ولا أدري كيف سيسير موضوعنا ذاك.

- لا تهتم ودع الأمور تسير إلى أن تستطيع التحقق من عواطفك.

(١٨)

مضى أسبوع ولم يظهر رستم، وانشغل محب وعادل في أمورهما، ولكن موضوع التمثال كان في فكرهما دائمًا. لهذا فحين كان محب جالسًا في المركز الثقافي المصري، لمح رستم ينظر في الصحف المصرية المعروضة هناك، وانتقى نسخة "الأهرام" واتجه ليجلس لمطالعتها. وحين وقعت عيناه على محب، استدار بسرعة معطيا له ظهره، ثم أعاد الصحيفة وخرج من مبنى المركز. وأسرع محب خلفه وناداه، فتوقف رستم وحيا محب.

- أهلاً أستاذ رستم ؟ ألا تتذكرنى ؟

- نعم بالطبع.

- هل يمكننى أن أدعوك إلى فنجان قهوة أو مشروب ؟

- الحقيقة أنا مشغو...

- هيا هيا. لن نأخذ إلا وقتا قصيرا.

وجره محب إلى شرفة كافيتيريا خارجية وجلس معه، وطلب زجاجتى كوكاكولا. واختار أن يدخل في الموضوع مباشرة.

- تعلم طبعًا أنني أريد أن أعرف ماذا فعلت بسيد قشطة.

- تقصد ذلك التمثال ؟ لقد أخبرني صديق أنه اختفى من المتحف.

- أنت كنت تريد سرقته.

- كانت مجرد فكرة. ولكن ليست لي أية صلة باختفائه.

- تعلم طبعًا أن عليّ أنا والأستاذ عادل عبد المجيد أن نبلغ السفارة بالموضوع.

- ليه ؟ وما دخلى بذلك ؟

- علينا أن نذكر ما قلته لنا ونترك التصرف للمسؤولين.

- زي ما تحبوا. لكن أنا هنكر إني قلت أي حاجة عن التمثال.

- هذا يؤكد لي أنك تعرف ما جرى للتمثال. فإذا كنت تعرف من أخذه، أو كنت أنت من سرقه، فقل لي ونحن نستطيع أن نساعدك.

- كيف ؟

- أعرف أن سرقة شيء كهذا من متحف مثل اللوفر بكل ما به من حراسة يحتاج لعقل مدبر ذكي.

فتهلل وجه رستم وقال دون وعى :

- مش كدا ؟ شكرا أستاذ محب !

وتطلع محب إلى رستم، وتطلع رستم إلى محب، ثم انفجر كلاهما في الضحك.

محب : جميل. أظن هذا أفضل. وأنا عند وعدى بمساعدتك في رد التمثال دون أن ينالك أي ضرر.

وظل رستم مطرقا فترة قبل أن يتكلم.

- وإزاى هتقدر تعمل دا ؟

- اترك هذا لى. والآن، هل التمثال سليم وفي مكان آمن ؟

- نعم.

- أين خبأته ؟

وتردد رستم قليلاً قبل أن يجيب.

- إنه في صندوق الأمانات الأوتوماتيكى بمحطة سان لازار.

- أها... يا لك من مدبر. كان الأفضل أن تستخدم هذا الذكاء في شيء بنّاء.

- أردت أن أنتقم لبلدنا من سرقة آثارنا.

- لا لا. ليس بتلك الطريقة يا رستم. نحن نعيش في فرنسا وبين الفرنسيين ويجب علينا أن نحترم قوانينهم. لا تنس مقولة الشيخ محمد عبده عن فرنسا بعد عودته من منفاه هناك : " كنت في باريس فوجدت فيها مسلمين ولم أجد إسلاما؛ وها أنذا في مصر أجد إسلاما ولم أجد مسلمين ". نعم، لنا حقوق في الآثار التي خرجت على نحو غير قانونى من بلادنا، ولكن هذا هو واجب مصر بالتفاوض من أجل إعادتها، لا بسرقتها ثانية. وبالمناسبة، كيف حالك في دراستك ؟

- مش ماشى. اللغة صعبة وتقف عقبة في وجهي.

- أرى أن اختيار فرنسا للدراسة بالنسبة لك غير مناسب. إن أسرتك فيما يبدو قادرة على الإنفاق، فكان أجدر أن تتوجه بالدراسة في مصر، أو في دولة عربية.

- أبي صمم أن أدرس بالخارج.

- وما حال لغتك الإنجليزية ؟

- متوسطة. لكني أحبها وكان يمكن أن أدرس بها.

- كان يمكنك الدراسة في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، أو ببيروت. مارأيك أن نقابل معًا الملحق الثقافي المصري هنا ونبحث معه إمكانيات دراستك في دول أخرى ؟

- جميل جدا.

- سنتفقق على ذلك في لقاءاتنا بالمقهى. والآن، هل تعطينى مفتاح الصندوق الذي وضعت فيه التمثال ؟

فقام رستم بخلع حذائه وسط دهشة محب، وأخرج منه مفتاحا صغيرا.

رستم : من يعرف حكايتى غيرك ؟

- الأستاذ عادل عبد المجيد. ولكن، اطمئن، من الآن لا صلة لك بهذا الموضوع، وسأتولى أنا وهو إعادته للمتحف أنونيموسلى.

- ما معنى الكلمة دي ؟

- أقصد دون أن يعرف أحد من أخذ التمثال ومن أعاده.

- آه. شكرا لك يا أستاذ محب، لقد أنقذتنى من حمل ثقيل كان يتعبنى.

- أعلم ذلك، فأنت في أعماقك من أسرة طيبة ولا تحب أن تفعل شيئًا غير قانونى.

- أترك الأمر لك إذن، وسأقابلك في القهوة لنتفق على زيارة الأستاذ رامي بشأن دراستي.

* * *

توجه محب لزيارة عادل في فندقه، حيث رحب به عادل، وجلس محب إليه :

- هل وصلت إلى شيء في موضوع رستم ؟ إني لم أره منذ تحدثنا عن موضوعه سابقا.
- أنا كنت أحسن حظا، وإن كنت قد رأيته مصادفة. لقد نجحت في حمله على الاعتراف بأنه من سرق التمثال.
- أووه. كيف تسنى له أن يفعل ذلك ؟ إن مثل ذلك الأمر يستعصى على اللصوص المحترفين.
- في الواقع لم أسأله عن كيفية السرقة، فقد اكتفيت بمعرفة المكان الذي خبّأ فيه فرس النهر.
- هذا هو المهم بالفعل.
- لقد وضعه في صندوق إلى للأمانات في محطة سان لازار، وأعطاني المفتاح. والآن أريد استشارتك عما يمكن أن نفعله لإرسال المفتاح للمتحف أو للشرطة دون الكشف عن هوية أي أحد.

- مممممم...أفضل شيء يا أستاذ محب هو وضع المفتاح في مظروف معنون لأمين المتحف وإسقاطه في أي صندوق للبريد.

- أجل يمكننا ذلك بعد أن نزيل أي أثر لبصمات الأصابع من على المفتاح أو المظروف.

- وهكذا يضطرنا هذا الغلام إلى أن نفعل فعل محترفى الإجرام !

- المشكلة الآن هي كيف نذكر لمسؤولى المتحف أن التمثال الضائع موجود في صندوق الأمانات والمفتاح هو للصندوق ؟

- صحيح، هذا صعب. يجب ألا نستخدم خط اليد.

- هذا سيجعلنا نلجأ إلى الحيل الصبيانية. لا حول ولا قوة إلا بالله.

- تقصد أن نصُفْ جملة بما نريده من حروف إحدى المجلات ؟

- ليس أمامنا سوى ذلك.

فضحك محب بمرارة وهو يقول : أفضل استخدام عدد من بارى ماتش.

- سأترك لك هذه المهمة، فأنا لا أعرف الفرنسية جيدا.

- وهو كذلك. ولكن علينا ألا نفاتح أي مخلوق بهذا الموضوع، ونعتبره منتهيا عند ذلك.

- هذا طبيعي يا أستاذ محب، ولك تعهد مني بذلك.

* * *

وكان أن قص محب في بيته حروفا من مجلة بارى ماتش قديمة تشكل جملة قصيرة بالفرنسية تفيد أن المفتاح المرفق هو لصندوق أمانات به تمثال فرس النهر الضائع. وبعد أن تأكد من إزالة أي أثر للبصمات على كل شيء، ألصق طابعا على المظروف الموجه إلى متحف اللوفر قبل أن يخرج لإلقائه في صندوق بريد بعيد عن منطقته.

ولم تطل به الأيام كي يرى النتيجة، فبعد أيام ثلاثة من ذلك، طلعت الجرائد بنبأ العثور على التمثال الضائع، وأن خبراء المتحف تأكدوا أنه هو التمثال الأصلي وليس صورة منه...

(١٩)

خرج رامي من مبنى شقته إلى صباح يوم سبت جميل، فصاح في خفوت كعادته أحيانًا : بونجور باريس. كان قد تعود على أن يقضى بعض أيام السبت متجولا وحده في طرقات باريس، يتطلع إلى المارة ويستطلع فترينات المحلات في غبطة وسرور. وكان يذكر دائمًا ما صاحت به أودرى هيبورن في فيلم " وجه غريب " حين رأت باريس لأول مرة، ويردد ما يماثله عندما تطالعه باريس بجمالها الساطع. وسار قليلاً ثم هبط إلى المترو ليستقله إلى محطة قوس النصر، وخرج من جهة جادة الشانزليزيه، وعبر إلى الرصيف الآخر حيث كان يحب المحلات التي به.

شركات الطيران العالمية، المصارف، محلات أرجانس المشهورة بالكرافتات الحريرية الرائعة، دور السينما، الكافتيريات الجميلة التي تبسط الموائد خارجها، ومحلات الاسطوانات. ودخل محل الاسطوانات ليبحث عن الجديد فيها. وكان قد استقر عزمه بعد تفكير إلى شراء الجهاز الجديد الذي ظهر في الأسواق والمسمى " كاسيت ريكوردر "، الذي يستخدم شريطا في علبة صغيرة مسجلا عليه الأموسيقى والأغاني، ومعه ميكروفون للتسجيل على الأشرطة الخام. وكان لديه جهاز التسجيل الضخم بالبكرات، ولكنه ثقيل ويتطلب الكثير من الإجراءات للتسجيل عليه ثم تحديد مكان ما قام الشخص بتسجيله،

أما الجهاز الجديد فكان صغير الحجم وسهل الاستعمال. وكان قد درس الموضوع قبل ذلك واستقر رأيه على جهاز من ماركة فيليبس، وعليه فلم يأخذ الأمر منه وقتا طويلا، إذ ابتاع الجهاز ومعه الضمان وبعض الأشرطة الخام للتسجيل عليها، واشترى كذلك شريطا مسجلا لبعض أغاني " أدامو " التي يحبها، وشريطًا آخر عليه قطع " كارمينا بورانا" الذي وضع موسيقاها كارل أورف. وخرج فرحا بغنيمته الفنية التي ستفتح له آفاقًا جديدة للاستمتاع بالموسيقى والأغاني على نحو أكثر سهولة. ورأى بخياله كيف ستسر ماريسول بذلك وكميلة أيضًا.

ولما كان حمله خفيفًا، استمر في مشيته الهادئة في البولفار الواسع الفخيم. لمح مكتبًا للصرافة ورأى كيف انخفض الدولار الأمريكى في مقابل الفرنك الفرنسي، بما يعني تأثر مرتباتهم، ولكنه لم يهتم بل ابتسم حين تخيل مدى امتعاض من جاءوا هنا لجمع الأموال فحسب. ووصل إلى مكان الكافيتيريا جالميلة تعودت الشخصيات العربية على الجلوس في شرفتها الخارجية يتبادلون الأخبار والآراء. وجلس يستمتع بالنظر إلى المارة من حسان باريس والعشاق الذين يمضون متلاقى الأيدى، ويستمع إلى مناقشات من بجواره من العرب، وكان معظمهم يتحدثون بالفرنسية حتى لا يلفتون إليهم الأنظار. كان أكثرهم مذهولين من هزيمة مصر بتلك السهولة بعد أن تحدث الجميع قبل الحرب؛ وبعضهم يبدى ضرورة التكاتف الاقتصادي لمساعدة دول المواجهة، خصوصًا وأن الحرب قد أدت إلى الرواج في بعض الدول الأخرى.

وأخرج رامي دليل جهاز الكاسيت الجديد وأخذ يقرأه وهو يحتسي مشروبه، وتعجب من إمكانيات ذلك الاختراع الجديد الذي يمكن اصطحابه وحمله في الأسفار والرحلات للاستمتاع به في كل مكان، وكذلك تسجيل ما يريد كتابته من مقالات وترجمات حتى وهو في سياحاته المختلفة بأقاليم فرنسا وفي بلاد أوروبا. وكان قد وضع في خططه الاستفادة من وجوده في فرنسا لزيارة بعض الدول القريبة، فزار بالفعل إنجلترا - بطبيعة الحال - مرتين، وإسبانيا وهولندا؛ وهو يعد العدة الآن لزيارة النمسا. كانت فيينا دائمًا في باله بما فيها من طبيعة خلابة وموسيقى عالمية وجمال تغنت به الآفاق. وكان يذهب إلى البلاد التي لا يعرف لغاتها ضمن زيارة منظمة يصحبهم مرشد سياحي عليم باللغة. ولكن كانت هناك بالطبع أيام حرة يذهب فيها كل سائح حيث يريد، وكان رامي يستغلها لزيارة المكتبات والأماكن التي لا يتضمنها برنامج الرحلة المنظمة، وينتهز فرصة أنه بمنجى أن يصادف أحدًا يعرفه فيدخل إلى محلات الجنس ليرى ما فيها مستطلعا والى دور سينما " الأفلام الزرقاء " ويبهت بما يشاهده فيها. كان كل ذلك متواجدا بوفرة في باريس، ولكنه كان يخجل من التردد عليها خشية أن يراه أحد من الطلاب المصريين أو العرب. كانت هولندا في مقدمة البلاد التي افتتحت مثل تلك المحلات، وبها أيضًا تلك الفترينات التي تعرض فيها بائعات الهوى أجسادهن، ورأى في لندن الفتيات يشرحن في محلات الجنس ما تبيعه دون حرج أو خجل. وهو يتطلع في زيارة النمسا إلى الذهاب

إلى ضاحية " جرينزنج " حيث قرأ عن الساقيات الحسان يقدمن الشراب ولا يغطي صدورهن إلا شريط رقيق ! غير أنه كان يطمح أيضًا إلى مشاهدة الأوبرا هناك، وزيارة " مايرلنج " الشهيرة وحضور تمثيليات المقاهي إذا ما كانت إحداها تقدم شيئًا بالإنجليزية أو الفرنسية.

ونهض مستمدًا مزيدًا من النشاط، ماضيًا في جادة الشانزليزيه إلى " الروند بوان "، حيث المبانى الجميلة لبعض الصحف الفرنسية المشهورة، هادفًا بعد ذلك إلى الوصول - كعادته - إلى ميدان الكونكورد. وهناك جلس يستريح ويملّي بصره من رحابة الميدان ومن المسلة الفرعونية تسمق في منتصفه بينما التماثيل الأربعة تحتل جوانبه. وحين قام ليكمل مسيرته إلى شارع ريفولي حيث يتناول طعامه، لمح كميلة وماجد يقفان في الصف لدخول متحف "جي دي بوم" في جانب الميدان، فبذل جهده أن يتوارى عنهما حتى لا يعطلانه بدعوته إلى الانضمام إليهما. وتفكر في علاقة كميلة وماجد التي سبق أن شرحتها له كميلة حين ألح أن يعرف بها، وتعجب من تلك الفتاة الجميلة الذكية التي ترفض الزواج من ذلك الشاب الوسيم الثرى وتفضل أن تكون علاقتهما حرة.

وأهل على شارع ريفولي العتيد بما فيه من حوانيت العاديات والتذكارات الفرنسية، وكان كالعادة يعج بالسياح الذين يبتاعون تلك الأشياء. ولم يكن رامي يحب أن يكون بينهم، فتوجه من فوره إلى "مطعمه العجيب" كما كان يسميه، لأنه شغف به منذ زمن وأصبح

هو معروفا فيه، وكان يقدم خدماته طوال اليوم على غير عادة المطاعم الفرنسية التي تتقيد بمواعيد محددة للغداء والعشاء. وكان يوم رامي جميلا كعادته في أيام السبت، ثريا بما رآه وشعر به من أحاسيس الفن والجمال.

وكان قد واعد ماريسول على اللقاء أمام واجهة اللوفر الرئيسية، لتمضية ليل السبت ويوم الأحد معًا كالعادة. وحين التقيا سألها أي الأفلام تود أن ترى؛ واعربت ماريسول عن رغبتها في مشاهدة فيلم " الأب الروحى " الذي كان قد ابتدأ العرض في فرنسا، ولكن رامي أبدى اعتراضه على مشاهدة ذلك الفيلم بالذات بدوبلاج باللغة الفرنسية، لأنه قرأ عن براعة مارلون براندو في التحدث كزعيم من زعماء المافيا الإيطالية في نيويورك، ولذلك هو يرغب في مشاهدة الفيلم في إحدى السينيمات التي تعرض الأفلام بصوتها الأصلي بترجمة فرنسية. ولما ألحت صاحبته، وافق رامي على أن يعيد رؤيته للفيلم كما يريده بعد ذلك.

واستمتعا بالفيلم حتى في نطقه الفرنسي أيما استمتاع. وطاف في ذهن رامي أنه لا حاجة به الآن لأن يقتنص من صاحبته قبلات أو لمسات في ظلام السينما كما كانوا يفعلون في مصر، فعنده هنا شقته الخاصة والحرية الفردية التي يتيحها له المجتمع الفرنسي، بأن يقابل من يقابل ويصطحب إلى بيته من يصطحب، دون رقابة من أحد ولا نظرات استهجان من الجيران.

وبعد الفيلم، عادا إلى شقة رامي وهما يتناقشان فيه ويبديان إعجابهما بتمثيل مارلون براندو وآل باتشينو المعجز، وبالموسيقى الرائعة المصاحبة للفيلم. وكانا يتعجبان من أمر عصابات المافيا في نيويورك في مطالع القرن، إذ كانا يظنان أن مرتع الجريمة في أمريكا هي مدينة شيكاغو، ولكن الفيلم قدم تلك العصابات بالتفصيل وكيف كانت تعيث فسادا هناك ويمتد نشاطها إلى كل الولايات الأمريكية. وكالعادة، انهمكت ماريسول في إعداد العشاء، بينما أخذ رامي يطالع كتابا عربيا ويترقب الحب الذي سوف تمنحه إياه ماريسول.

(٢٠)

ياجو : مولاي حذار من الغيرة ! ذلك مخلوق شائه
يتحلى بعيون خضر لكن يسخر ممن ينهش كبده !

شكسبير : مسرحية عطيل
ترجمة الدكتور محمد عنانى

وجاء صباح اليوم الموعود. اليوم الخطير. اليوم الذي ستصل فيه سهير إلى باريس. وكان على محب أن يكون في انتظارها في مطار أورلى، ولما لم يكن يعرف القيادة، أخذته شانتال في سيارتها بعد نقاش قصير، ذكرت له فيه أن سهير تعرفها من خطاباته لخطيبته، وأن مجيئها معه يؤكد أن ما بينهما صداقة وعمل ليس إلا. وكان ذهن محب وأفكاره في غاية الحيرة والتدافع : كيف سيستقبل سهير، هل سترى قلقه وشكوكه ؟ هل يقبّلها أو يحنضنها بعد نلك الغيبة ؟ وتذكر كيف كان يذهب معها إلى سينما في مصر الجديدة كي يختلس منها قبلات عديدة، وكيف أنهما شاهدا الفيلم الهندى " سانجام " مرات عديدة من أجل ذلك...بيد أن قصة ذهابها إلى ليون باختيار غريمه الدكتور عزيز، وهو الذي يعلم أنه يذهب إلى هناك بين حين لآخر لإلقاء محاضرات في الأدب المقارن، لم تكن إلا لتثير لديه مشاعر القلق وعدم الاستقرار على رأى. ولم يملك إلا أن يتذكر قول كميلة كيف أن الرجال الشرقيين يمتعون أنفسهم كما يشتهون بينما لا يسمحون للمرأة حتى أن تنظر لرجل آخر. وهو لا يعلم على وجه الدقة : هل تكون غيرته تلك مجرد تعلة كيما يبتعد عن سهير ويقترب من شانتال ؟ يا لأعمال فرويد وهواجسه !

وكأنما أدركت شانتال قلقه فابتسمت وهي تسأله :

- فيم تفكِّر ؟

- تعلمين فيم أفكر. إني مقبل على موقف صعب. ولا أدري ما سيكون عليه المستقبل حتى القريب منه.

- لا تهتم. فكر في اليوم الذي أنت فيه، ودع الغد ينظم نفسه. أنت مسلم، وهذا يعني أن تترك الأمور لله، بعد أن تبذل بالطبع كل ما يمكنك عمله في أي مشكلة تصادفك. هل اتفقت مع كميلة أن نذهب إلى منزلها من هنا مع سهير ؟

- نعم، فهي قد رحبت باستقبال سهير عندها أسبوعا أو اثنين حتى تحضّر أوراقها مع مكتب البعثات ثم تتوجه إلى ليون.

- أنا لا أفهم تلك العادات الشرقية. سهير خطيبتك وهي تأتي هنا فكيف لا تقيم معك ؟

- أنت لا تدركين معنى هذا بالنسبة لها وللجميع هنا، فلا يمكن أن نعيش معًا ما دمنا لم نتزوج.

- أأنت الذي تقول ذلك وأنا أعهدك ليبراليا متفتح الذهن سابقا لعصره ؟

- هذا ما تقوله كميلة أيضًا. لو أن الأمر راجع لي أنا فقط لكانت الأمور تختلف، ولكن هناك سهير وكثير من الأشياء الأخرى.

- ولماذا لم توافق على أن أقوم أنا باستضافة سهير تلك المدة ؟

- سيكون ذلك صعبًا لي ولها ولك.

وعند ذلك الحد كانا قد وصلا إلى حرم المطار، فأدخلت شانتال السيارة في مكان الانتظار، وسارت مع محب نحو صالة الانتظار. وحين تطلع محب إلى مكان المطار الذي يعرفه جيدا، انتابته حالة البحران، ووجد نفسه ينظر إلى مطار آخر جديد، ينطق بالحداثة ويشع بلافتات الإرشاد المضيئة، ويزدحم بالمسافرين والمستقبلين،

بينما الطائرات الضخمة تهبط وتقلع كل لحظة. وأدرك محب أنه يعاين لحظات نوستراداموسية مستقبلية، ورفع عينيه إلى أعلى فرأى لافتة تقول " مطار شارل ديجول الدولى ". وبعدها، تراجعت أبصاره ثانية نحو البؤرة الصغيرة من عينيه، ورأى مرة أخرى نفسه يسير إلى جوار شانتال، وهو يفتح لها الباب الخارجي لمطار أورلى ثم يدلف وراءها إلى صالة الاستقبال. وتطلعا إلى قائمة الطائرات القادمة ووجدا أن الطائرة المصرية على وشك الوصول، فتوجها إلى الصالة التي يخرج منها من يصل من الخارج، وجلسا في الانتظار وقد انشغل كل منهما بأفكاره.

وأعلن الميكروفون عن وصول الطائرة المصرية، فقاما إلى الحاجز في انتظار الخارجين. واستغرق الأمر وقتا إلى أن بدأ المسافرون في الخروج مع امتعتهم، وبدت سهير وهي تسير خلف حمال وضع حقيبتين لها على الشاريو، فهرع محب نحوها وقد نسى كل قلقه واحتضنها وطبع قبلة على جبينها وهو يمطرها بكلمات الترحيب والشوق. ثم أخذها من يدها وقدمها لشانتال وقدم شانتال لها، وتصافحا في ود. وذكرت شانتال للحمال أن يتبعهم إلى حيث كانت السيارة. وكان الحديث يدور بين محب وسهير عن الأحوال والأصدقاء والأقارب في مصر، وكان يبدو على سهير أنها تعلم أنها لن تذهب للإقامة مع محب، وإنما في فندق مؤقت. وذكر لها محب أنه قد رتب لإقامتها مع كميلة المصرية التي تدرس الفنون والتي حكى لها عنها في خطاباته.

ووصلوا إلى العربة، وحاسبت شانتال الحمال بعد وضعه الحقيبتين في شنطة السيارة، فوق اعتراض محب، وركبت سهير بجوار شانتال بينما شغل محب مقعدا في الخلف. ولاحظ محب دهشة خفيفة في عيني سهير بعد أن رأت سيارة شانتال الفخمة ومبادرتها بدفع أجر الحمال مع " بقشيش " جيد. وبدأت شانتال تحادث سهير بالفرنسية واستجابت سهير لها حين رأتها تحادثها بود وبلا تكلف. وكان محب يتدخل في الحديث حين يكون لديه ما يقوله. ورأت سهير طرقات فرنسا وعرباتها...الطرق هي الطرق والعربات هي العربات. ولكن حين خرجت العربة من نطاق المطار وبدأت تدخل أرباض المدينة، رأت سهير قمة برج إيفل على البعد فدق قلبها وأفاقت على أنها الآن في المدينة التي حلمت دومًا بزيارتها واستشراف مغانيها التي قرأت عنها طويلا في كتابات من تحبهم من الفرنسيين، كبروست، وكذلك في كتب طه حسين وعبد الرحمن بدوى وتوفيق الحكيم. وطفقت شانتال توجه نظر سهير إلى ما يمرون به وهي تقول لها أنها بالطبع تعرف كل ذلك من قبل، وهاهى تراه رأى العين : برج إيفل، الأنفاليد، قوس النصر، الشانزليزيه... ويبدو أنها تعمدت أداء جولة سريعة في المنطقة قبل أن تتجه إلى مسكن كميلة الذي أعطاها محب عنوانه.

وتوقفت العربة أمام المبنى السكنى الأنيق، فنزل محب وفتح باب السيارة لسهير، ثم فتح شنطة العربة وأخرج الحقيبتين، وانحنى يشكر شانتال ويودعها. وتساءلت سهير ألن تصعد شانتال معنا إلى

كميلة، فأجاب محب بالنفى، ثم توجه إلى المبنى وضغط على زر في شماله، وتحدث إلى كميلة أنهما قد وصلا، ففتحت لهما باب المبنى من شقتها. وحمل محب الحقيبتين إلى الداخل ووضعهما في الأسانسير ودخله وراء سهير.

كانت كميلة تقطن في الطابق الرابع من المبنى، وحين توقف المصعد أمامه وخرجت سهير ومحب وجدا كميلة في انتظارهما، ورحبت بسهير على الطريقة المصرية، وأخذتها من يدها إلى داخل الشقة، وتركت محب يدخل بالحقيبتين ويغلق الباب. وجلس الجميع في الأنتريه، ثم صحبت كميلة سهير لتريها الشقة، وحجرة النوم الثانية الصغيرة التي خصصتها للضيفة. وحين عادا، قال محب لسهير إنه سيتركها الآن كي تستريح من السفر، وسيحضر غدا ليصطحبها إلى مكتب البعثات المصري.



دخلا إلى مبنى السفارة المصرية بعد أن أبرزا جوازى سفرهما، وصعدا إلى طابق مكتب البعثات. استقبلهما السكرتير ثم قادهما إلى مكتب الملحق الثقافي : رامي. ووجد محب رستم جالسًا في طرف الحجرة فسلم عليه وسأله عن أحواله فرد في سعادة أن كل شيء يسير على مايرام وفقا لنصيحته. وهش رامي لهما، وسلم على سهير وهو يقول لها حمد الله على السلامة بعد أن خمّن أنها خطيبة صديقه.

- أرجو أن تكون رحلتك طيبة يا آنسة سهير. لقد تلقينا أوراق بعثتك، كما أن رئيس القسم قد حادث المستشار بشأنك، فكل شيء جاهز الآن.

محب : من رئيس القسم ؟

- الدكتور عزيز، الأستاذ بقسم اللغة الفرنسية، المشرف على دراسة الآنسة سهير.

سهير : ماذا جرى يا محب ؟

محب : آه. لاشيء. لقد سهوت بعض الشيء.

وناول رامي سهير عدة أوراق طالعتها بسرعة ووقعت على بعضها قبل أن تعيدها إلى رامي. وطلب الأخير السكرتير تليفونيا وأخبره أن يجهّز الشيك الخاص بالآنسة سهير فهمى.

رامي : سنصرف لك مستحقاتك كطالبة بعثة، وهي مصروفات الاستعداد ومرتب شهر وتذكرة سفر بالقطار إلى ليون مقر الدراسة. وأرجو حال وصولك إلى ليون أن توافينا بعنوانك وبالمصرف الذي تريدين تحويل مرتب البعثة إليه. سيساعدونك في الجامعة على إنجاز كل شيء. وهم يعرفون الدكتور عزيز جيدا، فهو ينتدب كثيراً إلى هناك لإلقاء محاضرات، وقد يأتي عن قريب إلى فرنسا.

واكفهر وجه محب عند سماعه ذلك، ولكنه لم يعقّب. وأحضر السكرتير الشيك فوقعه رامي، وبعدها اصطحبهما إلى غرفة المستشار الثقافي للتعرف على المبعوثة الجيدة التي ستكون تحت إشراف

المكتب. وكان لقاء المستشار قصيرا، كرر فيه صلته الوثيقة بالدكتور عزيز، مما زاد من حنق محب وشعوره العميق بالقلق.

وما إن خرجا من مبنى السفارة حتى قال محب إنه يريد الجلوس في مكان ما لشعوره بتعب مفاجئ، فتوجها إلى كافيتيريا قريبة يعرفها. ولما كان الوقت ظهرا فقد طلبا أكلة سريعة بينما يتبادلان الحديث.

سهير : ماذا جرى يا محب. أرى بك ضيقا شديدا.

- بالطبع، فهاهو عزيز يبرز ثانية في حياتنا مما يعيد النوبة عندى.
- أي نوبة ؟ أنت لا تدري ما تقول. إنه أستاذي منذ دخلت الكلية وأنت تعلم الصلة التي بيني وبينه تمامًا، وهي صلة الأستاذ بتلميذته.
- قد يكون ذلك من ناحيتك أنت، ولكنه لا يبدو أن الصلة لديه تقتصر على ذلك.
- أظن أننا انتهينا من هذا النقاش الفارغ منذ أعلنا خطوبتنا. لقد اخترتك عن حب وبصيرة.
- ولكني لن أشعر بالراحة طول ما هو ورائك في كل شيء.
- وأنت وشانتال هذه ؟ يبدو أنك تسارع باتهامى قبل أن أتهمك أنا. إنها تعرف عنك كل شيء. هل أنت واثق أن العلاقة بينكما هي علاقة زمالة فقط ؟

- هي علاقة زمالة وصداقة. وبالإضافة إلى ذلك، أنا مدين لها بالكثير في دراستي وحياتي هنا.

- سنرى ذلك في مستقبل الأيام. ثم إنك أنت يا محب الذي تضع العوائق في حياتنا، فلم تقبل أن نستأجر شقة في مصر، ولا إجراء الزواج هناك قبل أن أجئ. هل غيرت رأيك في الزواج بيننا ؟

- كيف تقولين ذلك ! إني فقط أود إتمام الزواج على أرضية واضحة منك ومنى على حد سواء. وبدورى أسألك هل ما تزالين تحبيننى وترغبين في الزواج مني ؟

- بالطبع يا حبيبي.

وكما لو أن محب فوجئ بتلك الكلمة المحببة تنطقها سهير لأول مرة منذ مجيئها، مما شجعه على قول الجملة التالية:

- إذن، يجب عليك قطع كل صلة بالدكتور عزيز.

فبهتت سهير من ذلك الطلب العجيب، وقالت بصوت ذاهل :

- ماذا ؟ كيف ؟ إنه أستاذي طوال ست سنوات، كيف لا أتعامل معه بعد كل ذلك وبعد كل ما فعله من أجلي ؟

- هذا هو الحل الأمثل، وإلا فسوف نستمر وسط المشاكل والجدل طوال الوقت...

- إذن أنت جاد في كلامك. إن هذا جنون.

- تصفينى بالجنون لأنى أحبك وأغار عليك ؟

- ليس هذا بالحب ولا بالغيرة. كل شيء له حدود. وإذا أردت أن تطاع فأمر بما يستطاع.

- لو أنت تحبيننى لفعلت ذلك.
- والله أنت سوف تزيل حبك من قلبي بأفعالك تلك.
- ها أنت تعترفين...
- بم أعترف ؟ لقد تغير تفكيرك وأصبحت غير محب الذي أعرفه والذي أحببته. ترى هل تفتعل كل هذا حتى تتخلص مني وتخلو إلى شانتال ؟
- أظن أننا قد جاوزنا الحد في النقاش والحوار ولا بد أن نهدأ ونناقش مشاكلنا في وقت آخر يا سهير. وبالمناسبة، تدعونا شانتال أنا وأنت لزيارة منزلها في دوفيل وتريدك أن تشاهدى مجموعة كتبها النادرة لكامى وسارتر وكذلك رامبو.
- والله أنا لا أدري أأقبل أم أعتذر حتى أعرف حقيقة العلاقة بينكما.
- علاقة عمل ليس إلا. وقد قلنا أن نؤجل النقاش لما بعد. هيا بنا، سأسير معك إلى شقة كميلة. أرجو أن تكونى مستريحة معها ؟
- جدا. إنها فنانة رائعة. ستذهب معي لزيارة معالم باريس التي أحلم بها، وكنت أحب أن تكون أنت معي.
- سأكون معك.

ونهضا متثاقلين بعد أن دفع محب الحساب وخرجا من الكافيتيريا.

(٢١)

" في الحقيقة إن باريس لا تنام، وفيها أماكن وجماعات وأفراد لا يعرفون الكرى، وإن كانت الحقيقة في أغلب الأشياء لا تنطبق على الخيال الذي يرتسم في الذهن قبل المشاهدة، فإن باريس بلا ريب استثناء لتلك القاعدة؛ لأن حقيقتها أعظم من خيال يرتسم في ذهن القادم عليها؛ لأنها مدينة جميلة، وذكية، وعالمة، وعفيفة، وحاذقة، وفاجرة، وصريحة، وماكرة، ولعوب، وذات جد ووقار، ومباحة، وذات أسرار...بل هي سجل للحياة وقاموس للوجود، ومعرض لكل أنيق ودقيق وجليل وذميم وحقير. ومثلها لدى عالِم النفس والاجتماع كمثل طبقات الأرض التي تكونت في مدى ملايين السنين ".

محمد لطفي جمعة

خرجت سهير مع كميلة كيما تزور معالم باريس قبل التوجه إلى ليون. كانت يقظة سعيدة تترقب ما سوف تشاهده عيانا بعد قراءاتها عنه وأحلامها برؤيته. كان نوم البارحة قد غسلها غسلا من مناقشاتها الغريبة مع محب، وتتوق الآن إلى العودة إلى براءة الوجود. وقالت لها كميلة إنهما سيبدآن اليوم بمشاهدة المعالم الخارجية، حيث أن زيارة المتاحف تتطلب وقتا سيخصصانه لها بعد ذلك.

وطفقت سهير تتنقل ببصرها ووجدانها بين الجمال والتاريخ والذكريات، كفراشة تتنقل بين أنواع الزهور، ما إن تهبط فوق زهرة إلا لتنطلق إلى أخرى تمتص من رحيقها ما تستطيع. كان في يد كميلة خريطة مترو باريس، وذكرت لسهير أن المترو هو خير وسيلة الانتقال السريع من منطقة لأخرى في باريس، ولكن الأوتوبيس هو الأجمل بعد ذلك لمروره بين المعالم الباريسية كلها فوق الأرض. وهبطا معًا إلى محطة المترو القريبة من بيت كميلة، التي كان معها دفتر تذاكر، فدلفا من أحد المنافذ، متجهين إلى محطة قوس النصر. كانت أول مرة ترى سهير مترو أنفاق، وتذكرت المشروعات الكثيرة التي وضعتها مصر لإنشاء مترو تحت الأرض بالقاهرة، والتي لم يتم تنفيذها أبدا. وراعها النظام والسيولة في مترو باريس، والأدب الفروسى الذي غاب عن مصر، حين لم يكن هناك سوى مقعد واحد شاغر أجلستها كميلة فيه، فقام الراكب الذي بجوارها يقدم مقعده لكميلة التي شكرته بلهجة باريسية أصيلة وجلست إلى جوار صديقتها وتبادلا نظرة تشى بما في قلبيهما.

وصعدت الفتاتان فما راع سهير إلا منظر قوس النصر المهيب منتصبا أمامها، وسارت حيث تقودها كميلة كأنها منومة. وحين وقفا تحته أمام شعلة الجندى المجهول، وجهتها كميلة إلى النظر عبر شارع الشانزليزيه الذي يمتد أمام البصر.

كميلة : هذا هو أجمل شارع في العالم برأيى. وهناك ترين أقصاه فيبدو لك نهايته قريبة منك، ولكن حين تغذين السير فيه تجدين المسافة طويلة جدا. هيا...سنصعد قوس النصر.

ولم تكن سهير تتصور أن هناك سلما للصعود، ولكنها تبعت كميلة فإذا بها في السطح وأمامها كل معالم باريس على مشارف البصر. وأخرجت كاميرتها المتواضعة وبدأت في التقاط الصور وهي متقطعة الأنفاس من روعة ما ترى. وأخذت كميلة الكاميرا منها وصورتها مرات وهي على قوس النصر ووراءها ما وراءها.

كميلة : من خبرتى بالأماكن السياحية يا سهير، أن الأفضل أن تصورى منها ما تحبين ولكن وأنت فيها أو أمامها، فتكون الصورة تذكارا لوجودك. أما الأشياء ذاتها فيمكنك شراء صورها على الكارت بوستال.

وبعد أن شبعا من المكان، هبطا وأخذا يسيران في الشانزليزيه.

كميلة : هل تحبين المشى يا سهير ؟ إنه أحسن وسيلة لرؤية الأماكن والتوقف أمامها.

سهير : أحب المشى جدا، وقد طفت بالقاهرة والإسكندرية سيرا على الأقدام.

كميلة : عظيم. ولكن أرجو أن تقولى لي لو شعرت بالتعب، فيمكننا الجلوس حينذاك.

ومضيا في الطريق الواسع الجميل، يمران بالمحلات الأنيقة التي تعرض كل شيء، وبالمعالم المعروفة في عاصمة النور، كالقصر الكبير والقصر الصغير، بينما سهير تلمح على البعد برج إيفل شامخا، إلى أن وصلا إلى ميدان الكونكورد الذي توقفا عنده. وكانت سهير قد شاهدت صورا كثيرة للميدان، غير أنها بهرت باتساعه ونظامه الفريد من نوعه. وقادتها كميلة إلى المسلة الفرعونية والتقطت الصور بجانبها، وطفقت تروى لسهير التاريخ الذي شهده الميدان وأهمه إعدام الملك لويس السادس عشر فيه، وأشارت إلى مبنى في طرف الميدان وذكرت لها أن هذا هو متحف الجي دي بوم الذي يضم أشهر اللوحات الحديثة نسبيا وخاصة لوحات الانطباعيين. ومشيا معًا إلى طريق جانبي بالميدان وهو شارع روايال حيث عرضت كميلة أن يتناولا وجبة في كافتيريا هناك تحمل الاسم نفسه وهي تقدم أفضل قهوة باللبن في باريس، قائلة لها أن محب هو الذي نبهها إلى تلك الكافيتريا بعد أن قرأ ذلك في كتاب تعليم الفرنسية.

ووجدت سهير المكان هادئا وأنيقا، وأكلا وجبة خفيفة، وبعدها " الكريب " بالسكر، متبوعا بالقهوة باللبن. وتحادثا وهما يرتشفان.

سهير : هل تعرفين محب منذ فترة طويلة ؟

كميلة : نعم. منذ جاء إلى هنا تقريبا. قابلته في مكتب رامي الملحق الثقافي. كان جديدا على باريس، فقدته في أول خطواته هنا. هو شخص رائع جاد وأرجو أن تكونا موفقين معا.

- أوافقك. ولكني أجده الآن مختلفا عمن عرفته في مصر. أصبح شديد الحساسية غير واثق في نفسه. وكذلك صداقته مع شانتال، التي لا أعرف مداها.

- هههه. تعرفين الشباب حين يحضرون إلى هنا. ولكن أعتقد أن صلتهما مساعدة متبادلة، وقد قدمت له شانتال فرصا نادرة كيما يكمل عمله.

- أعرف هذا. ولكني غير مطمئنة. ثم انه يثير مرة أخرى موضوع الأستاذ المشرف على دراستي، وهو موضوع كنا قد انتهينا منه.

- على العموم، هذه العلاقات يجب أن نتعامل معها بهدوء وحكمة.

- أرجو أن تنتهي على خير.

- هل نكمل غدا تجوالنا في باريس ؟

- غدا يأخذنى محب إلى منزل شانتال في دوفيل لأرى مكتبتها. فإذا لم يكن عندك مانع استأنفنا زياراتنا بعد غد.

- وهو كذلك.

وهبط عليهما شاب أنيق الملبس وسيم الطلعة، حيا كميلة وقبلها على خدها في تلقائية، فقدمته إلى سهير :

- سهير، هذا ماجد، صديقي. وهذه سهير خطيبة محب فوزي.

ورحب بها ماجد، وأصر على دعوتهما إلى جولة في عربته المرسيدس في أنحاء باريس وتخومها كيما تراها سهير، ثم دعوة إلى العشاء في المطعم المجاور للمقهى، وهو مطعم " مكسيم " الشهير. وحاولت سهير الاعتذار ولكن ماجد أصر بطريقته المحببة الودود. وأحست سهير أن ما بيـن كمـيلة وماجد ما هو أكثر من مجرد الصداقة. واستمتعت أيما استمتاع بالجولة الباريسية التي شاهدت فيها الكثير مما كان يتطلب وقتا كبيراً لرؤيته، ولم يزعجها إلا طريقة ماجد في قيادة السيارة بتهور في الطرق المزدحمة، برغم تحذيرات كميلة له بالتمهل والحذر.

وكانت تجربة الأكل في مكسيم تجربة مذهلة، في المعاملة والجمال والذوق والطعام والشراب. وتذكرت سهير ما كان يُقال من أن أثرياء مصر في العهد الملكى كانوا كثيراً ما يطلبون الطعام في مناسباتهم الخاصة من مكسيم الباريسي فيأتي لهم إلى مصر بالطائرة ! وتعجبت أن ماجد طلب لهم جميعًا أفخر الأطعمة والأشربة، وذهلت من قيمة المبلغ الذي دفعه بعد أن انتهوا من العشاء والبقشيش، على نحو أنبأ بانه متعود على الأكل هناك في كثير من الأوقات.

* * *

كان اليوم الذي خصصه محب لسهير عاصفًا بشكل خطير، لا من ناحية الطقس ولكن من ناحية المشاعر. ذهب إليها في شقة كميلة مبكرا وتحادثا بلطف وشوق، وهبطا أمام المبنى حين اقترب حضور شانتال. ولما جاءت العربة دعت سهير محب إلى الجلوس بجوار شانتال في المقعد الأمامي متعللة بحاجتها إلى "مد ساقيها". وتحادث الثلاثة الأحاديث المعتادة في تلك المناسبات. ولفت انتباه سهير الثقافة العالية التي تميز شانتال، اذ تكلمت عن رموز الأدب الفرنسي بوعى وبصيرة ثاقبة، وذكرت لها أمورًا عن دراسة رامبو وعتها سهير لأنها ستساهم في بحثها عنه. واستمتعت سهير كذلك بالمناظر الطبيعية الجميلة في طرق فرنسا ما بين باريس ودوفيل، وكذلك أدهشتها فيلا شانتال وما يحيط بها من حديقة باسقة بتماثيل متناسقة مع كل ذلك الجمال.

وداخل الفيلا، بعد استراحة قصيرة قدمت فيها مشروبات منعشة، ذهب الجميع إلى الجناح الذي يضم الكتب والمخطوطات النادرة. وطافت سهير بأعداد من الطبعات الأولى والنسخ الممهورة بتوقيع مؤلفيها، ليس للكتب الفرنسية وحسب، بل الكثير من اللغات، ومنها العربية بتوقيع توفيق الحكيم ويوسف السباعى ونجيب محفوظ وطه حسين. وشاهدت بشوق مؤلفات ألبير كامى الذي درست أعماله وفكره في درجة الماجستير بإشراف الدكتور عزيز، ووجدت نفسها تفكِّر برغمها في المتعة التي كان سيشعر بها أستاذها لو أهدته نسخة نادرة مثل تلك الكتب التي تراها أمامها. وشعرت بالانبهار تجاه شانتال ووقر في وجدانها أن محب قد شعر بالانبهار

نفسه ولا بد أنه يحبها أي نوع من الحب، فهي مخلوقة براقة من كل جانب. وغلب على شانتال طبعها الكريم فقامت بإهداء سهير طبعة جديدة من الأعمال الكاملة لرامبو، مع عرضها أن تتابع تزويدها بأى كتب نقدية لأعماله. وشكرتها سهير من كل قلبها، وهي تشعر أن محب سعيد جدًا بتقاربها مع شانتال.

* * *

وانشغلت سهير في الأيام الثلاثة التالية بزيارة المتاحف الباريسية والمعالم الهامة بالعاصمة، سواء وحدها أو مع كميلة أو محب، فزارت الجي دي بوم واللوفر وغيرهما، وبرج إيفل وقبر نابليون بالأنفاليد وكتدرائية نوتردام وعشرات الأبنية والأماكن التي كانت سهير تحلم برؤيتها.

وحدث أن كانت مع محب، ومرا أثناء جولتهما بكنيسة قديمة تدعى " كنيسة سان سلبيس "، فوقفا يتطلعان إلى بنائها القوطى المدهش، وإذا بنوبة بحران تطغى على محب، فيرى جموعا كثيرة من السياح أمام الكنيسة، وكل جمع معه دليل يشرح بلغات مختلفة، ووجد الكثير من أولئك السياح يحمل كتابا بعينه، ويلتقطون صورا للكنيسة وهم أمامها ويظهرون الكتاب في الصورة. وتعجب محب، فجاهد كيما يرى عنوان الكتاب، ولكن نسخا كثيرة منه كانت بلغات لا يعرفها، مع السياح اليابانيين والصينيين، فطاف بمجموعات أخرى وقرأ اسم الكتاب : "شِفرة دافنشي". ولم يتذكر محب أنه سمع

بكتاب يحمل ذلك العنوان منتشراً بهذا الشكل، قبل أن يفيق من نوبته ويدعو سهير للغداء في مطعم برج إيفل، حيث تخلل حديثهما مشاحنات وتوترات كانا يتجنبانها بعدم اللقاء على انفراد لفترة. وبدا لهما مدى الهوة التي بدأت تفغر فاها بينهما. وكان ذروة ذالك حين صعدا إلى أعلى مكان بالبرج، ووقفت سهير تتطلع منه إلى كل باريس من حولها، ومحب وراءها لأنه كان يشعر بالدوار من الأماكن المرتفعة، وإذا به يقول لها :

- تعرفين يا سهير، يمكننا أن ننهى كل مشاكلنا في لحظة واحدة، أن أقوم بدفعك من هنا إلى أسفل ثم ألحق بك. ما رأيك ؟

وفزعت سهير وهي تراه يضع يده على ظهرها فتراجعت إلى الوراء ومحب يضحك ويقول : هل صدقتِ ما أقول ؟

ولكن الوقت كان قد فات، إذ امتلأ قلب سهير بالخوف من محب بدلا من الحب منذ تلك اللحظة.

* * *

وفي محطة ليون بباريس، كان محب وكميلة في وداع سهير، حيث جلست بالقطار إلى جوار النافذة، ولوحت بيدها مودعة حين بدأ السير، وهي تشعر في أعماقها أنها لن ترى محب ثانية.

(٢٢)

قضت سهير الشهر الأول لها في ليون ما بين إجراءات الالتحاق بالجامعة، بما فيها من تقديم أوراق وشهادات، وبين ترتيب إقامتها بالمدينة، من مسكن وفتح حساب بالبنك والتسجيل في التأمين الصحى، وما إلى ذلك من أمور. كذلك طوفتْ في أرجاء المدينة تشاهد معالمها، ووقفت في انبهار أمام كتدرائية ليون الفخيمة التي رأت صورتها أول مرة في كتاب تعليم اللغة الفرنسية القديم " موجيه ". وكانت على صلة بالتليفون مع محب، وعلى صلة بمكتب البعثات لموافاته برقم حسابها وإجراءات التسجيل بالجامعة. وبالإضافة إلى ذلك، كانت على صلة بأستاذها عزيز الذي كان يحادثها تليفونيا من القاهرة كل أسبوع.

كانت في مفترق طرق !

" ألا يعلم محب - ذلك الأحمق - أنني كنت أحبه حبا صادقا، وأن شكوكه وتصرفاته هي التي ستدفعني آخر الأمر إلى الجنوح ناحية عزيز ؟ لو يعرف الشكاكون والذين تطغى الغيرة على مشاعرهم أن تلك المشاعر هي التي تنتهي بتحقيق أسوأ ما كانوا يتوقعون من حيث يدرون أو لا يدرون ؟ "

* * *

- أهلاً محب...ما أخبارك ؟

- الحمد لله...أسير في دراساتي جيدًا.

- (ضاحكة) البركة في شانتال...

- بالفعل، رغم ضحكك...وما أحوالك ؟ أرجو أن تبدئي دراستك بعد أن استقرت أحوال معيشتك إلى حد ما. وأرجو كما ذكرت لك دائمًا أن تقولي لي إذا احتجت لأي شيء.

- طبعًا يا محب. إنا الآن سأقابل الأستاذ الفرنسي الذي سيشرف على رسالتي.

- وكيف اخترتِه ؟

(صمت قصير على التليفون)

- لقد ذكره لي الدكتور عزيز. هو كما تعلم يعرف جميع الأساتذة هنا.

- سهير... ألا تستطيعين اتخاذ خطوة واحدة دون ذلك الرجل ؟

- إنه أيضًا مشرف على رسالتي، وسيكون ضمن اللجنة التي ستناقشها، ولا بد أن أكون على علاقة به...

- علاقة ؟ ألا تستطيعين اختيار كلماتك يا سهير ؟

- أنت عصبي الآن يا محب، نتكلم يومًا آخر. مع السلامة.

* * *

- أهلاً سهير.

- أهلاً محب. إزيك ؟

- تمام.

- أردت أن أخبرك بأمر قببل أن تسمع به فتفسره خطأ.

- ما هو ؟

- سيحضر الدكتور عزيز هذا الأسبوع ليقضى ثلاثثة شهور في فرنسا.

- وفي ليون طبعًا ؟

- نعم.

- وهكذا تعود لي النوبة مجددًا...

- دعك من هذا الكلام.

- سهير، إن أسوأ ما أتوقع يحدث أمامي وتقولين لي دعك من ذلك؟

- لا أشاركك أوهامك.

- أوهامي ؟ أنت لا تدرين بي وبحالي...

- توقف عن هذا يا محب.

-... أنا أتعذب ولا تحاولين شيئًا للتخفيف عني...

- محب.

-... وها أنا أجد أمامي كل ما تخوفت منه...

(تغلق سهير التليفون)

* * *

- محب ؟

- ماذا تريدين ؟ بعد أن أغلقت التليفون في وجهي.

- متأسفة يا محب. لقد اضطررت لذلك. كنتَ في نوبة هياج.

- لله الأمر من قبل ومن بعد.

- لماذا تقول ذلك ؟

- أنا في حالة بائسة يا سهير.

- لا أدري كيف أخفف عنك.

- تعرفين جيدًا يا سهير.

- كيف ؟

- ابتعدي عن ذلك الرجل ولا تقابليه أبدًا.

- إذن فلتقطع علاقتك بشانتال...

- ها أنتِ تؤكدين شكوكي بمساواة علاقتك بعزيز بعلاقتي بشانتال.

- وها أنت دون أن تدري تعترف بوجود علاقة بينك وبين شانتال.

(وكان دور محب أن يقطع الاتصال)



- متأسف يا سهير على ما فعلته الأسبوع الماضي من إغلاق التليفون.

- لا أدري لماذا تتصل الآن.

- أتصل لأرى كيف يمكن أن نصلح من علاقتنا.

- أعتقد أن الإصلاح بات صعباً.

- تقولين هذا لأن عزيز عندك الآن.

- إنك أنت من قطعت الصلة بيني وبينك بغيرتك وشكوكك، وأيضًا بعلاقتك بشانتال التي أنا متأكدة منها الآن. وأحب أن أقول لك أنني ذاهبة في رحلة دراسية إلى مدينة رامبو لمدة أسبوع.

- مع الجامعة ؟

- لا. رحلة خاصة مع الدكتور عزيز.

- الله الله...كيف ؟

- لقد دعاني إلى تلك الرحلة وسيتحمل كل نفقاتها.

- سهير : إذا نفذّتِ ذلك الأمر فهذا معناه قطيعة بيني وبينك.

- ألا تدري يا محب أن القطيعة بيننا قد تمت منذ زمن ؟

- هذا يعني أنك مصممة على تلك الرحلة.

- بالتأكيد.

- الوداع إذن يا سهير. اعتبري أن خطبتنا قد فصمت.

* * *

أمضى محب وقتًا عصيباً بعد سفر سهير إلى ليون وحين كان يحادثها وتحادثه وهي هناك. وبعد المكالمة الأخيرة التي أخبرته فيها بعزمها السفر برفقة عزيز إلى بادة رامبو وانفصام علاقته بسهير، وقع في براثن الحمّى، وكانت شانتال إلى جانبه ترعاه وتمرضه. وتنامت بينهما عاطفة لم تكن متواجدة من قبل، وأصبحا أكثر محبة وفهما. كانت العلاقة بينهما قائمة على المتعة وقضاء الأوقات الجميلة وتذوق الجمال والمعرفة، وتطورت تدريجياً إلى شعور عميق بالحب، حين وجدت شانتال أنها لم تلتق بشخص يماثل محب في تكوينه واهتماماته وعواطفه الرقيقة وثقافته الفنية الواسعة. ومن ناحية أخرى، تماهى محب مع عاطفة شانتال المتعمقة ووجد أنها تغيرت تغيرا جذريا في حياتها المنفتحة وبدأت تحصر أوقاتها وعنايتها في شخص محب.

وبدأ محب يتعافى مع مرور الوقت، ولم يكن أمامه سوى دراساته وعلاقته بشانتال. وعملت شانتال كل ما في وسعها لراحته، فلما وجدت صعوبته في السفر إلى دوفيل حيث مخطوط ابن منقذ، جلبت أحدث ماكينات التصوير الآمنة، ونسخت كل صفحة من المخطوط بعناية، حتى يتمكن محب من مواصلة دراسته في البيت.

محب : كيف أشكرك يا شانتي على كل ما تفعلينه من أجلي. كنت أخشى أن يضر التصوير بمخطوط قديم كهذا.

شانتال : لقد درست الموضوع جيدًا وشاورت المختصين فوجدت الطريقة الآمنة للتصوير الواضح دون إلحاق أي ضرر بالأصل.

- انك تبذلين من أجلي الكثير يا شانتال..

- كف عن هذا...ألسنا حبيبين ؟

وفوجئ محب بهذه الكلمة وبنبرة الصدق التي قالتها بها.

- بالطبع.

ومالت عليه شانتال وقبّلته في حنان.

وتطورت الأمور بينهما بسرعة بعد ذلك، ووهبت شانتال كل جوارحها لمحب، وخرجت معه إلى كل مكان، وجعلته يجالس الكثيرين من الفنانين والأدباء الذين تعرفهم، وحضر مقابلاتها مع البروفيسور جاك بيرك وتناقش معه في الترجمة التي يقوم بها للقرآن الكريم. وكانا يرحلان إلى أماكن رائعة رومانسية، رعت حبهما الجديد الذي نما في القلب بعد أن نما في الجسد. وازدادت الثقة بينهما مع زيادة الحب، حتى قام محب ذات يوم بالاعتراف لشانتال بأنه قد وجد بين صفحات المخطوط تلك البارشمان التاريخي الهام؛ ولمت تأكدت شانتال أن الورقة لا صلة لها بالكتاب، قالت له إنها تعطيه الورقة هدية خالصة له، يفعل بها ما يشاء.

وجاءت لحظة فاصلة في علاقتهما حين كانت شانتال بين أحضانه في منزلها الباريسي، وهما غارقان في نشوة الحب، فإذا بها ترفع جسدها عن جسده، وتنظر في عينيه نظرة تعبق بالشجن. ولما سألها محب ما الأمر، أجابت بتلك العبارة التي أصبحت منذ خرجت من شفتيها معْلما هاما خالدا في قصة حبهما :

- وماذا سأفعل بعد أن تسافر أنت إلى مصر ؟

وكانت هزة التحقق لكل منهما. وغرّق محب ناظريه في ناظريها برهة، ثم احتضنها ثانية وألصق جسدها بجسده، ثم همس في أذنها :

- لن أفترق عنك أبدًا يا شانتال.

* * *

وتغيرت العلاقة بين شانتال ومحب منذ تلك الليلة أكثر فأكثر، وأخذ حديثهما يدور كثيراً عن المستقبل.

محب : المشكلة هي إني لا بد أن أعود إلى مصر ولو لفترة من الزمن، لأن أستاذي الدكتور الشافعي قد وضع أملا كبيراً في اكتشاف ذلك المخطوط، وهو الذي سيشرف على رسالتي وسيزيد ذلك الموضوع من مركزه الأكاديمي.

شانتال : يمكنك العودة لمناقشة الرسالة وإرضاء أستاذك، ثم تعود.

- وحين أعود، ماذا أفعل هنا ؟

وصمتت شانتال، فهي تعلم أنها لا تستطيع أن تقول لمحب إنه لا يحتاج إلى شيء مادامت معه.

- يمكن أن تعمل بالتدريس في التاريخ المقارن، وموضوع الحروب الصليبية مطلوب جدًا هنا.

- وكيف يختارونني وعندهم أساتذة متخصصون ؟ هذا صعب جدًا ولا يمكن أن أتركه للظروف.

* * *

شانتال : تأكد يا محب إني أرحب بالحياة في مصر ما دمت معك.

محب : أنت قد شاهدت مصر كزائرة، وتنقلت ما بين الهلتون وسميراميس، ولم تجربي الحياة هناك كربة منزل، ويجوز كأم.

- لا لا. لقد تنقلت أيضًا في الأحياء الشعبية لزيارة الآثار وأماكن نجيب محفوظ..

- كل هذا جميل، ولكن الإقامة شيء آخر.

- سنتمكن من العيش في مستوى رفيع، وأنا كما تعلم سأناقش الدكتوراة الشهر القادم وبذلك أستطيع التدريس في الجامعة الأمريكية بالقاهرة. وفضلا عن ذلك، فإنه يمكننا السفر وقتما نحب، فسوف تكون لديك الجنسية الفرنسية أيضًا.

- وماذا يكون موقفى من زملائى وأسرتى حينذاك ؟

- لا أفهم ماذا تعني يا محب.

- نحن في مأزق حقيقي.

- ليس هناك أي مأزق ما دام هناك حب.

- يالك من حبوبة جميلة يا شانتي...

وبعد أن نالا ما ينالان من حب وعناق، جلسا يأكلان ويعيدا النقاش عما يمكن أن يفعلاه. وكان محب يركز على علاقته مع الدكتور شافعي التي تحتم عليه ألا يخذله، وأن يعود إلى مصر بما يحمل من كنوز يتقاسمان نتائجها معا. وككنت شانتال تسلّم بذلك، وهي تؤكد دومًا استعدادها للحياة في مصر مادامت مع محب. وقالت إنها ستبدأ أول خطوة بأن تخبر والدها بأنها تعرفت على محب وأنها تنوي الزواج منه، على أن تترك محل إقامتهما بعد الزواج إلى وقت آخر.

- مستعدة لمناقشة الدكتوراة يا حبيبتي ؟
- بالتأكيد. الموضوع قتلته بحثا ولذلك سيسهل عليّ المناقشة فيه، علاوة على أن الأستاذ المشرق راض تمامًا عن الرسالة.
- أرجو ألا تكون السوربون قد دعت الدكتور عزيز ليشارك في مناقشة الرسالة ؟

فضحكت شانتال وقالت :

- لا لا. لقد أرسلوها لأستاذ في قسم اللغة الفرنسية بجامعة الإسكندرية، والبروفيسور بيرك هو المشرف ومعه أستاذ فرنسي آخر. لا تقلق.
- لا قلق بالمرة. لقد نسيت موضوع سهير وعزيز تمامًا، والفضل لك يا شانتال.

- لقد وجهت دعوة للأستاذ توفيق الحكيم لحضور الرسالة، وأرجو أن تساعده صحته على الحضور.

- سيكون ذلك شيئًا رائعا، وإذا حضر يسعدني أن أرافقه في أي مكان يريد.

(٢٣)

" لا يوجد محب للشعر الإنساني دارسٌ له في أي مكان من العالم إلا ويعرف اسم رامبو؛ إنه شاعر مهم وموهوب، وأشعاره تزداد تألقًا مع الأيام، ويجتهد الباحثون في تقديم تفسير لها كلما ظهرت مناهج جديدة للبحث في الشعر ودراسته "

رجاء النقاش

▪ أرتير رامبو

ولد أرتير رامبو في ٢٤ أكتوبر ١٨٥٤ في بلدة شارلفيل، وكان أبوه ضابطًا مغامرًا لا يستقر له قرار، ما لبث أن هجر الأسرة حين كان رامبو في السادسة من عمره ولم يره بعد ذلك أبدًا. ولا شك أن رامبو قد ورث عن أبيه حب الترحال وعدم الاستقرار وجموح الطباع والثورة على كل شيء، بينما ورث عن أمه ما اشتهر به بعد أن عمل بالتجارة من حسن التدبير في كسب المال. وقد التحق رامبو بمعهد " روسا " ثم بالمدرسة الثانوية بالبلدة، وتلقى بها التعليم الفرنسي التقليدى أيامها، الذي كان يركز على تعلم اللغتين اليونانية واللاتينية، والتاريخ واللغة الفرنسية والرياضيات. وكانت فترة صباه التعليمية فترة عاصفة، فهو لم يكن يطيق النظام والقيود التي كان يفرضها عليه البيت والمدرسة، فكان دائم التمرد عليهما. وبرغم ذلك، مكنه ذكاؤه الحاد من التفوق في دروسه دون جهد، فكان يحصد الجوائز المدرسية على الدوام. وقد أتقن اللغة اللاتينية إلى الحد الذي كان ينظم بها شعرا، وحازت بعض قصائده على جوائز عامة. وكان يقضى وقته هائما في الريف وعلى ضفاف نهر " الميز "، ويقرأ كل ما تقع عليه يداه. وقد شجعه على طموحاته الأدبية والتحررية أستاذه " إيزمبار " الذي أقرضه الكتب الجديدة التي كانت محرمة في بيئة إقليمية منغلقة مثل بيئة شارلفيل. وطالع رامبو كتب هوجو وبودلير وسان سيمون

وميشليه، وسرعان ما بدأ يدبج القصائد بالفرنسية، ويضع تصوره الخاص لما يجب أن يكون عليه الشعر والشعراء.

ولما بلغ رامبو السابعة عشرة من عمره، كان قد حاول بالفعل أن يهجر منزله وبلدته أربع مرات على الأقل، منها المرة التي توجه فيها إلى باريس كي يشترك في ثورة الكوميون، تلك الثورة التي أعقبت هزيمة فرنسا عام ١٨٧٠ أمام القوات البروسية الألمانية، والتي أدت إلى سقوط الإمبراطور نابليون الثالث. وبعد ذلك، عكف رامبو على تعويض أحساسه بالمرارة بالانكباب على الكتابة، وكان نتاج ذلك مقالته عن الفن والشعر التي ذكر فيها أن الفن الحقيقي يجب أن ينبع من " الذات الأخرى " الخفية لدى الفنان، وأن سبيله إلى الكشف عن تلك الذات هو الحب والألم والجنون، وعلى الفنان أن يخلط في ذاته بين كل أنواع الحواس بحيث يمكنه في النهاية أن يصبح بصيرا، وتكون جميع حواسه في اتصال وتآلف، كما لو أنه عاد إلى ينبوع واحد لها جميعا، فالعين ترى رفيف الأجنحة، والأذن تسمع عبور الرؤى، وكل جارحة من جوارح الإنسان تزدهر وتنتعش أمام تألق الأشياء بالألوان والأضواء وتفيض بالشعر (من كتاب صدقي إسماعيل عن رامبو).

وواكب كتابة تلك المقالة تدبيجه قصيدتين طويلتين من أبرز أشعاره، الأولى بعنوان "ما يقال للشاعر عن الأزهار"، أما الثانية فهي قصيدته الشهيرة "السفينة النشوى". وقرر رامبو أن يبدأ حياته كشاعر، فأرسل مجموعة من قصائده إلى "بول فرلين" الذي قرأها

وأدرك على الفور أنه أمام ظاهرة جديدة في الشعر الفرنسي، فأرسل يستدعيه إلى باريس وقدمه إلى كبار شعراء زمنه. وارتبط رامبو وفرلين ارتباطا وثيقا جعلهما لا يفترقان. وتبدأ بذلك المأساة في حياة الشاعرين، والتي انتهت بإطلاق فيرلين النار على رامبو في فندق ببلجيكا. ويُسجن فيرلين، بينما يعود رامبو إلى أسرته في شارلفيل، حيث يقوم بكتابة آخر ما خطت يداه : " فصل في الجحيم "، وهو كتاب من النثر الشعرى لم يُكتشف إلا بعد وفاته. ومع آخر حرف من ذلك الكتاب، يهجر رامبو الكتابة والشعر والأدب، ويبدأ حياة من الأسفار والمغامرات والتجارة، أخذته إلى أصقاع نائية في الشرق الأقصى، ثم إلى افريقيا، في الحبشة وزيلع وجيبوتى؛ وكان على وشك أن يعمل مفتشا في الجمارك بالإسكندرية لولا أنه لم يطق الانتظار لإتمام الأوراق الخاصة بذلك. وزار القاهرة عدة مرات، وأودع في مصرف "الكريدى ليونيه " في حي الغورية أموالا ذهبية كوديعة لمدة ستة أشهر بفائدة ٤ %. وقد أصيب رامبو بعد ذلك بسرطان العظام الذي أدى إلى وفاته عام ١٨٩١.

* * *

كانت رحلة سهير مع عزيز خير تعويض لها عما رأته من محب طوال الشهور التي قضتها في ليون، ففضلا عن أنها قضت وقتًا سعيدًا

على طرق فرنسا، فهي كانت زادًا ثقافياً لها عن الشاعر الذي ستدرسه.

وقام الدكتور عزيز باستئجار عربة صغيرة مريحة، استقلها هو وسهير من ليون متجهين إلى شارلفيل. وسار عزيز بالعربة على مهل، ونهلت سهير من جمال الطبيعة التي يمران عليها في الطريق. وتوقفا في بلدة " شاتو- تيرى " لتناول الغداء. وكانت سهير مستسلمة لعزيز في كل ما يقول ويفعل، وكان هو يعاملها كما يعامل الأستاذ تلميذته وكما يعامل المحب حبيبته، دون أن يطغى أي جانب منهما على الآخر. وبلغا منتصف الطريق في مـدينـة " رانس " المشهورة، وقال عزيز إنهما سيقضيان الليلة فيها للراحة وزيارة المدينة. واختار فندقا جميلا ذا نجوم ثلاث، وطلب حجرتين متجاورتين له ولسهير. وبعد شيء من الراحة، اصطحبها خارجا ومعه دليل وخريطة للمدينة، فسارا سوياً وزارا الكاتدرائية والمتحف الرئيسي هناك. وحين جلسا في نهاية اليوم للعشاء، إذا بعزيز يطلب زجاجة من النبيذ الفاخر، وصب منها كأسا لسهير التي ترددت مغمغمة بأنها لا تشرب، ولكن عزيز شجعها بأن النبيذ لا غبار عليه وأنه يشربه للمساعدة على النوم.

وفى اليوم التالي، استيقظت سهير نشطة بعد نوم عميق بالفعل، وهبطت لتلتقى بعزيز في بهو الفندق. وتكررت بهجتها والسيارة تمضى في الطريق إلى شارلفيل وتمر بجمال الطبيعة في تلك المنطقة. وهناك، اختار عزيز فندقا ذا خمس نجوم رغم اعتراض سهير، ولكنه

قال لها إنه يريد أن يحتفظ كلاهما بأجمل الذكريات لهذه الزيارة. وكانت سهير تشعر شعورا مبهما بان الزيارة تحمل في طياتها أمورًا غير مجرد دراسة رامبو، وكانت تسير كأنها في حلم يظللها الرؤى والخيال.

وفى بدء التجوال، تناول عزيز يد سهير ووضعها في يده، فاستجابت وتركته يقودها حيث يريد. وبدءا بزيارة ميدان كبير، يفضى إلى مبنى متحف رامبو. ودخلته سهير في خشوع كأنها تدخل معبدا مقدسا، وأخذت تتأمل ما بداخل أول حجرة : آثار مما تركه رامبو؛ حقيبة جلدية متوسطة الحجم كان يستخدمها في أسفاره الافريقية؛ أدوات لحلاقة الذقن من القرن التاسع عشر، صور فوتوغرافية مكبرة للشاعر في بعض مراحل حياته.... وهامت سهير بكل ما ترى، وهي تناقش عزيز في كل ما يرونه، وحين وقعت عيناها على صور فوتوغرافية لقصيدة " السفينة النشوى " مكتوبة بخط اليد، أحست كأنها بلغت منتهى آمالها. ولم تكن الكتابة بخط رامبو للأسف، بل بخط بول فرلين. وأخذت تقرأ مع عزيز...

" بينما كنتُ أسرِى عبر أنهار جامدة

لم أعد أشعر بالملاحين يقودون خطاى

إذ صوب إليهم ذوو البشرة الحمراء سهامهم

وأوثقوهم عرايا إلى الصوارى الملونة.

وكنت قد خلعتُ عني كل أثقال وأحمال

أحمال القمح الفلمنكى والقطن الإنجليزي.

وحين ذهب كل هذا الصخب بالجداف مني

تركتنى الأمواج أسير كيفما أريد وأبغى. "

وسأل عزيز حارس المتحف عما إذا كانت الصور مسموح بها فيه، فلما أجاب أن نعم، التقط بعض الصور لسهير وهي تتطلع إلى صور رامبو، وصور الصفحة الأولى من القصيدة بخط فرلين. ثم عثرا على قصيدة " حروف العلة " بخط رامبو نفسه فكان اكتشافا فريدا وقفا أمامه فترة طويلة. ووجدا عددًا من اللوحات الحديثة تصور مشاهد خيالية لفقرات من السفينة النشوى...

" في خضم المياه التي هدر ثائرة،

أنا، في الشتاء الماضي، جريت ثم جريت

فى صمم يفوق عقول الأطفال،

ولم تعرف أشباه الجزر الطليقة

انطلاقا أكثر انتصارا من انطلاقاتى. "

وقبل أن يخرجا من المتحف، اشترى عزيز كثيراً من بطاقات البوستال والكتيبات التي تستنسخ ما في المتحف، وبعض الكتب الحديثة عن رامبو. وخرجا يلتمسان الأماكن المعروفة بالبلدة ذات الصلة بالشاعر. وقبل ذلك، دعا عزيز سهير لتناول قهوة في إحدى المقاهي ذات الشرفة الخارجية، وأخذ يشرح لها بعض ما قرأه عن البلدة في الدليل الذي معه :

- نعرف الآن لماذا تسمى البلدة "شارلفيل - ميزيير". كانت ميزيير بلدة مجاورة لشارلفيل، ثم تمَّ إدماجهما معًا عام ١٩٦٦، ومن هنا جاء الاسم المزدوج. وكان رامبو يطلق على بلدته اسم "شارلتاون" وقد بدأت البلدة تحتفى بشاعرها منذ عام ١٩٠١، على نحو متواضع أولا، ثم بتخصيص صالة له في "المتحف البلدي" عام ١٩٥٤ احتفالاً بمئوية مولده. ثم اختاروا مبنى "الطاحونة القديمة" منذ عامين فقط (١٩٦٩) ليكون هذا المتحف الذي زرناه لتونا. وهناك الكثير من الأماكن المتعلقة به في البلدة، وهي ما سنحاول الطواف به.

وبالفعل، انطلقا في حبور وجذل فزارا مبنى المدرسة التي تعلم فيها رامبو والتي تحولت إلى مكتبة البلدية، والبيت الذي ولد فيه الشاعر، بينما تتردد في ذهنيهما القصيدة الخالدة :

" لقد باركتْ العاصفة يقظاتي البحرية
فرقصتُ بخفة الفلين على صفحة الأمواج
التى تطوي فيما يقال فريستها أبد الدهر.
عشر ليالٍ دون أن أحيد عن عين الفنار البلهاء.

" وتسربتْ المياه الخضراء إلى قشرتي الذهبية
برفقٍ يضاهي ملمس الصبي للتفاح المر
وغسلتني دفعات من النبيذ الأزرق ومن المطهرات
فأحالت الدفة والمخطاف حُطامًا منثورًا "

ووقفا سويًا على ضفاف نهر " الميز "، يتصوران الشاعر الهائم على وجهه وهو يطوف بتلك الضفاف جيئةً وذهابًا وهو يردِّد أشعاره بينه وبين نفسه.

" ومنذ تلك اللحظة غمرتني مياه القصيدة
قصيدة البحر، ترصعها الكواكب ويندى منها الحليب
ملتهمًا الزرقة الخضراء،

حيث يهبط أحيانًا غريق غارق في الفكر
طافيًا، شاحبًا، تغمره نشوة ذاهلة. "

ثم خرجا إلى أطراف المدينة فوجدا جسرًا طويلاً معلقًا، جلسا أمامه في نشوة ذاهلة عن كل شيء :

" هناك حيث تختمر احمرارات الحب المريرة
وتصبغ فجأة – تحت توهجات الأيام –
الزرقة، والهذيان، والإيقاعات البطيئة،
التى تفوق الصهباء قوةً والقياثير رحابةً.

" لقد خبرتُ السماوات المنصدعة في بروق
والزوابع، والأعاصير، والتيارات
خبرتُ المساء، والفجر الطالع كأنه رهط من الحمائم
ورأيتُ أحيانًا كل ما ظن الإنسان أنه رآه !

رأيت الشمس غاربة يلطخها رعب صوفي
تنير جمادات بنفسجية طويلة
كأنها الممثلون في أدوار الدراما القديمة
والأمواج على البعد تطوي رجفاتها المصراعية ! "

وقاما ليعبرا الجسر الجميل الذي يفضى إلى حديقة غناء، وفي وسط الجسر توقف عزيز، وأمسك يدي سهير، وهمس لها : "أتتزوجينى يا سهير ؟"، فدارت بها الدنيا وأحست أنها في السماء السابعة وهي تجيب "نعم". وعندها أحاط عزيز بخصرها وجذبها إليه ثم طبع على شفتيها قبلة رقيقة ذابت على إثرها سهير بين ذراعيه :

" وحلمتُ بالليلة الخضراء للثلوج الباهرة
قبلة تصّاعد إلى عيون الملاح في روية
ودوران العصارات الغريبة القصية
واستيقاظ الوهجات الشادية
تظللها الصفرة والزرقة !

" لقد تتبعتُ شهورا بطولها
دفقات الموج تعصف بالصخور البحرية
كأنها أبقار هائجة
ولم يخطر ببالي لحظة
أن أقدام العذراء الوضّاءة
بوسعها كبح جماح المحيطات لاهثة الأنفاس ! "

وبعد أن عبر عزيز وسهير الجسر المعلق، وجدا بالحديقة مطعمًا صغيرًا أنيقًا في الخلاء الطلق. نظر عزيز إليها دون كلمة فأومأت برأسها. وجلسا وطلبا طعامًا خفيفًا.

عزيز : أرجو أن تعلمي يا سهير إني لم أنقطع عن حبك يوما؛ لكني احترمت اختيارك المبدئي لمحب رغم إدراكي بأنه ليس مناسبا لكِ.

سهير : أنه صفحة من حياتي طويتها بلا رجعة يا دكتور عزيز.

- أنا خطيبك الآن يا سهير، نادِني باسمي دون ألقاب.

- وهو كذلك، رغم صعوبة ذلك.

- ستتعودين. والآن، كي تودين أن نعلن خطبتنا وترتيبات زواجنا ؟

- يبدو أنك متعجل لذلك ؟

- جدًا. ما رأيك أن تأخذين أجازة من الدراسة ونطير إلى مصر حيث أطلب يدك من أسرتك ؟

- سيكون ذلك مكلفًا.

- لا تقلقي. خير الله كثير.

ضحكت سهير وأبدت موافقتها.

" لقد اصطدمتُ بخلجان غريبة، أتعلم ذلك ؟
تُقرن بالأزاهير عيون فهود لها جلد الإنسان
وأقواس قزح منبسطة تحت آفاق البحار
كأنها أعنّة القطعان الخضراء الزاهرة !

" لقد رأيت المستنقعات الهائلة تفور
وشبَكاتٍ يتحلل في أحراشها حوت هائل بكامله
وانهيارات مائية وسط سكون العواصف
وآفاق قصية تسّاقط كالشلالات إلى الهاوية السحيقة !

" رأيتُ أنهارًا جليدية، وشموسًا فضية،
وأمواجًا لؤلؤية، وسماوات نارية،
وجنوحًا شائنًا في أعماق خلجان سمراء
حيث أفاعٍ عملاقة تلتهمها الحشرات الضئيلة
فتهوى من الأشجار الملتفة يحتويها الشذى الأسود !

" لقد رغبتُ أن أكشف للأطفال عن سمك المرجان
وعن الموجة الزرقاء
وتلك السمكات الذهبيات والمكات المنشدات
بيد أن زبَدا كالأزاهير هَدهد من انطلاقاتى
ورياحٌ تفوق الخيال خلعتْ عليّ أجنحة من حين لحين. "

- كيف تفضلين أن يكون خاتمًا الخطبة ؟
- الأفضل أن نشتريهما في مصر.
- جميل. وعليك أن تختاري ما ننقشه عليهما. والآن، ماذا نفعل بسنوات دراستك في فرنسا ؟

" وأحيانًا، كان يرفع لي البحر –
الذى هَدهد نشيجه من مسيرى –
أزاهيره الظلالية ذات الكؤوس الصفراء
لى أنا، الشهيدة المنهكى من ارتياد الأقطاب والمناطق.
وبقيتُ هكذا... كامرأة جاثية على ركبتيها...

وأصبحتُ كالجزيرة، تتمايل على جانبي التزاعات
وروَث الطيور النابحة ذات العيون الشقراء
وطفقتُ أجدف بينما هبط الغرقى ليناموا
عبر حبالى الواهية، مرتدين على أعقايهم !

- هذه مشكلة بالفعل. لا يمكن أن تكون أنت في مصر وأنا بفرنسا طوال تلك الفترة.
- أنا لا استطيع الانتظار.

قالها عزيز ضاحكًا:
- إذن ماذا تقترح ؟

" وها أنا الآن : سفينة ضائعة تحت أعواد الطحالب
ألقتها العاصفة في الأثير الخالي من العصافير

أنا التي لم تكن قوارب الحراسة ولا حراس الشاطئ
لتنتشل جثتي التي أفعمتها المياه بالنشوة.

" طليقة، مبخرة، تظللنى الضبابات البنفسجية
أنا التي نقبتُ السماء الاحمرارية كأنها الجدار
أنا التي تحمل المربى الشهية إلى الشعراء الناهين
ونباتات الشمس المغطاة بالمخاط اللازوردى.

" أنا التي جريتُ، تبرققشنى الأظافر الكهربية
لوح أحمق تحفّبه أفراس النهر السوداء
بينما شهور يوليو تهدم بالهراوات
السماوات اللازوردية ذات الأقماع المتوهجة. "

- دعينا نفكر سويًا. لا أريد أن أفرض عليكِ شيئًا يا سهير. ستكون حياتنا معًا بالتوافق دون طغيان أحد على الآخر.
- أنا أثق فيك ثقة عمياء، وأنا واثقة أنك لن تفكِّر في شيء يكون فيه أي أذى لى.
- إذن دعينا نفكر في حلول محتملة ونختار واحدًا منها إن شاء الله.

" أنا التي كنتُ أرتعد
إذ أشعر بعواء أفراس البحر وبالدوامات الخفيضة
تخور على بُعد خمسين فرسخا
وأنا أنسج دومًا خيوط الجمود الأزرق...
آه...كم أحن إلى أوروبا ذات المتراسات العتيقة !

" لقد رأيت أرخبيلات نجمية، وجزيرات
تفتح سماواتها الهاذية أمام الضاربين بالمجداف.
أفى مثل هذه الليالي التي لا نهاية لها تنامين وتنئين بنفسك
يا ملايين الطيور الذهبية، يا قوة المستقبل ؟

" ولكن، حقًا، لقد بكيتُ بما فيه الكفاية...
لكم يصدع الفجر الفؤاد !
كل الأقمار مريعة وكل الشموس مريرة.
لقد أفعمتْنى آلام الحب بأخدار مسكرة
آه، فلينحطم قاعى...آه، فلأغرق في الأعماق ! "

- كم أنا سعيد بك يا حبيبتي سهير.

وأخذت سهير بكلمة حبيبتي وأفعمتها بالنشوة.

- وأنا سعيدة بك جدًا.

- فقط ؟

- جدًا جدًا.

- تعرفين إني لا أقصد ذلك...

واحمّر وجه سهير وتمتمت في خفوت :

- يا حبيبي عزيز.

" لو أنني هفوتُ إلى المياه الأوروبية

فلتكن بحيرةً سوداء باردة

يقعى أمامها صبى مفعم بالأحزان

قرب الغسق العاطر

ويطلق قاربا هشا إلى المياه

كأنما هو فراشة من فراشات الربيع.

" لا أستطيع بعد ذلك أيتها الموجات

وقد استحممتُ في كآبتكِ وأشجانك

أن أرفع المرساة للسفن حاملات الأقطان

ولا أن أعبُر زهو البيارق والمشاعل

ولا أن أسبح تحت الجسور العائمة المخيفة. "

(٢٤)

أستاذي الجليل الدكتور عبد الحميد الشافعي

تحية واحتراما،

عكفت كما اوعزتم لي على دراسة الصفحات الناقصة من كتاب ابن منقذ في المخطوطة الثمينة التي وفقنى الله إلى العثور عليها.وكما ذكرت لكم في خطاب سابق، فإن الصفحات التي تسبق صفحات مخطوط الإسكوريال تزيد عن أربعين صحيفة، يأتي بعدها الصفحات المعروفة والمنشورة من الكتاب، ولكن بخط أكثر وضوحا لحسن الحظ، مما قد يمكننا من نشر تلك الصفحات أيضًا على نحو دقيق.

وقد وجدت في الصفحات الجديدة المكتشفة ثروة من المعلومات عن فرقة الحشاشين وشيخ الجبل، ولكن الأهم هي المادة التي بثها أسامة بن منقذ عن حياته في مصر خلال تغيير الناصر صلاح الدين لها من الخلافة الفاطمية واستبداله بها بالدولة الأيوبية. وأهمية تلك الصفحات أنها جاءت من شاهد لها كان قريباً غالبية الوقت من السلطان الأيوبي. كما أنه - في عبارات قليلة - أكد ما تناقله المؤرخون الأقدمون من أحداث العباس بن أبي الفتوح وزير الخليفة الفاطمي الظافر الذي دبر مقتله ومقتل أخويه وأقام الطفل على الخلافة باسم الظافر، وكان ابن منقذ من الذين حذروا العباس

من ذلك كما يبدو من كتابته في تلك الصفحات. فلما دخل طلائع بن رزيك القاهرة دون قتال وانهزم العباس، انتقل بن منقذ إلى الشام والتحق بنور الدين زنكى هناك. وأهم من كل ذلك هو ذكر بن منقذ نقل رأس الحسين بن الإمام علي بن أبي طالب من مدينة عسقلان إلى مصر خوفًا من هجوم الفرنج ودفنها هناك.

وهناك أيضًا ذكر الزلزال القوى الذي ضرب شيزر بلد ابن منقذ وكيف نجا منه بفضل مايسميه " المقادير ".

ويبدو لي أن أسامة بن منقذ قد وضع كتابه هذا في عهد حكم صلاح الدين، ولهذا بدأه بكل ما يتعلق بذلك السلطان وهمته في حروب الصليبيين، وفخره وسعادته باستعادة المدن العربية التي كان الأفرنج قد احتلوها. وما يؤكد ظنى هذا أنني في المخطوطة المكتشفة، لم أجد الفصل المتعلق بمديح " مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين " في مكانه في أواخر الكتاب المطبوع المنشور عن طبعة الإسكوريال، بل وجدته في الصفحات الأولى التي جمع فيها ابن منقذ حديثه عن عن صلاح الدين.

سيدي الدكتور

أكتب إليكم متأخرًا بعد توقف، فقد صادفتني بعض الأزمات الخاصة في حياتي ألزمتني الفراش فترة، ولكن الله قد منَّ عليّ بالشفاء، وأنا أنوي التقدم بسرعة في دراسة المخطوطة، وفي انتظار توجيهاتكم في هذا الشأن، وما تخططون له من تقديم رسالتي ونشر المخطوطة.

وأشكر لكم جزيل الشكر ما ذكرتموه من أنكم تتركون لي تحقيق الكتاب وكتابة التعليقات التاريخية عليه، ولكني أصر على أن يكون نشر ما نتوصل إليه تحت مراجعتكم كما هي الرسالة تحت إشرافكم الكريم.

وتقبلوا خالص الشكر والتقدير

تلميذكم محب فوزي

(٢٥)

وداعًا يا خريف باريس

أيتها السفينة الزرقاء

يا بحر المحبة،

وداعا أيتها الأنهار

أيتها الجسور وداعا

وداعا أيها الخبز المقدد العاطر

أيها النبيذ المعتق الحلو وداعا

ووداعا أيها الأصدقاء

يا من أحببتمونى.

إننى أرحل منشدا في البحار

أعود لاستنشاق الجذور

غامض هو عنوانى

أعيش في أعالى البحار

وفى مرتفعات الأرض

مدينتى هي الكرة الأرضية

شارعى هو " أنا ذاهب "

ورقمه " حيث لا عودة ".

بابلو نيرودا

كان كل المصريين في باريس يعتصرهم الحزن للأخبار التي تأتي لهم من مصر وما يقع فيها من قلاقل الإسلاميين وطلبة الجامعات الذين يطالبون بالاستعداد الجدي للحرب لاستعادة سيناء. وقد جعل ذلك كثير من المصريين يفكرون في العودة ولو مؤقتا إلى بلادهم ليعضدوها في محنها. وقد أعطى ذلك الشعور حلا لمحب وشانتال لمشكلتهما، إذ انتهيا إلى أنه لا محل لمحب أن يبقى ويناقش رسالته في فرنسا، ولكن يجب العودة إلى مصر بما يحمله من وثائق ومراجع ليتم رسالته تحت إشراف أستاذه هناك، على أن يعود بعد ذلك للعمل والإقامة في فرنسا. وبقى مسألة هل ترافقه شانتال في مقامه المصري أم تنتظره في بلدها ؟

وحلَّ شهر رمضان، وكان من عادة المكتب الثقافي أن يدعو المبعوثين المصريين إلى اجتماع عام واحتفالية في قاعة المركز الثقافي، يحضرها كل موظفى المكتب ومن شاء من أعضاء السفارة. ولما كان محب موظفا مؤقتا بالمركز، فقد حرص على إبلاغ أصدقائه بتلك المناسبة، وقال لهم إنه يمكنهم اصطحاب من يشاؤون من أصدقاء من غير المصريين. واصطحب هو شانتال حيث قدمها إلى المستشار ورامي والملحقيْن الثقافيين الآخرين، وطاف معها بأبهاء المركز يريها معروضاته من لوحات وتماثيل مصرية.

كانت الاحتفالية تبدأ في الواحدة ظهرا بخطاب المستشار الثقافي، تتبعه مناقشة مفتوحة مع المبعوثين المصريين عن أحوالهم ومشاكلهم، وبعض العروض التي يقدمها أطفال مصريين. وبعد ذلك

تُمد موائد إفطار رمضان حين يحين الموعد، وتنتهي الاحتفالية بعرض فيلم مصري، كان يومها فيلم " ثرثرة فوق النيل ".

كان عدد الحضور ليس كبيراً، فكثير من الطلاب لا يرحبون بتلك الاجتماعات الرسمية ولا يجدون منها فائدة. وصعد المستشار الثقافي إلى المنصة يحيط به رامي وأحد الملحقين الأخرين؛ ولمح رامي عددًا ممن يعرفهم جيدًا وسط الحضور. ووحين بدأ المستشار الثقافي الحديث، كان يردد المقولات التي تبثها الدولة عن الاستعدادات للحرب والتي لم يعد يصدقها أحد. ولذلك، حين جاء الدور عليه ليجيب على أسئلة المبعوثين، وجد نفسه يواجه وابلاً من الامتعاض لموقف المكتب من المعلومات التي يعرفونها عن عدم جدية الأمور في مصر.

وفى وسط السؤال والجواب، حضر أحدهم وأسر شيئًا في أذن المستشار الذي كان جالسًا على المنصة والى جواره مساعديه الملحقين الثقافيين. وعلت الدهشة وجه المستشار ورد متسائلاً لمن جاءه، وسمع رامي الحديث ومفاده أنه يبدو أن حربًا قد نشبت بين مصر وإسرائيل !

كان اليوم هو العاشر من رمضان، السادس من أكتوبر ١٩٧٣.

وأسرع المستشار بإعلان الخبر الذي جاءه للتو، فإذا بعض الحضور يخرجون رادوهات صغيرة ويستمعون إلى أخبار تؤكد حدوث هجوم متبادل بين ضفتي قناة السويس. وطلب رامي من

أحد سعاة المركز الثقافي إحضار الراديو الحديث الذي لديهم والذي يمكنه التقاط راديو القاهرة، واستمعوا في جلال ورهبة بهجوم الطائرات المصرية على مطارات العدو وأنجزت مهمتها وعادت أغلبها سالمة.

وانقسم الحضور بين مصدِّق ومكذِّب، وبين متفائل ومتشائم، في حين اعتذر المستشار وأسرع إلى السفارة المصرية كي يتواجد هناك ويتلقى أي تعليمات بشأن الموقف. والتفَّ حول رامي جمعٌ من الحضور يواصلون الاستماع إلى البيانات العسكرية الصادرة عن القوات المسلحة المصرية، ويديرون المؤشر بين محطات أجنبية أخرى لسماع ما تذيعه. وغادر محب المركز ومعه شانتال قاصدين شقتها في باريس حيث كان لديها هناك راديو ساتلايت قوى الذبذبات يلتقط كل الإذاعات العالمية. ولاحظت شانتال مدى تأثير الأحداث على محب، الذي أصبح عصبياً فاقد الصبر يتمتم الدعاء لله لنصر وطنه الحبيب.

وفى المنزل، ومع توالي الأخبار بنجاح الهجوم المصري، عمت الفرحة قلب محب وبالتالي شانتال، وجاء نبأ تدمير خط بارليف الإسرائيلي وعبور الجنود المصريين إلى الضفة الشرقية لقناة السويس ليتم تلك الفرحة، وإن صاحبها القلق أيضًا والدعوات كي يتم الله نصر مصر.

وجاء ذلك الحدث الكبير فأوضح لمحب الطريق الذي عليه أن يتبعه، وهو العودة إلى مصر في أقرب وقت بما معه من الكتب

والمعلومات كي تكون بلاده هي التي قدمت اكتشافه التاريخي، كا أنه أوضح لشانتال طريقها، وهو الوقوف إلى جوار حبيبها في ذلك الوقت العصيب، فأعلنت لمحب أن عليه العودة إلى مصر وأنا ستصحبه إلى هناك مهما كانت الظروف. وكانا يخططان لحياتهما المقبلة : فكان على محب أن يستكمل رسالته للدكتوراة مع أستاذه الشافعي ويحضّر لنشر كتاب ابن منقذ كاملا، مع إلقاء المحاضرات عن اكتشافه، وعن رقعة البرشمان التاريخية وإهدائها إلى المتحف الإسلامي. أما شانتال فهي ستتقدم للعمل بالجامعة الأمريكية بعد أن حصلت مؤخرا على الدكتوراة في الأدب المقارن. وقبل كل ذلك، كانا يخططان لعقد زواجهما في الأيام الأولى لوصولهما إلى القاهرة، وحملت شانتال كل الأوراق اللازمة لذلك، وكان والدها قد وافق - بصعوبة - على زواجها حين رأى مدى تصميمها على ذلك. وقد وضعا مقامهما في مصر على نحو يحتمل التغيير حسب ظروفهما، فمحب سوف يتقدم للحصول على الجنسية الفرنسية، مما يتيح لهما حرية التنقل.

وتتابعت أحداث الحرب بحلوها ومرها، ولكن كان العديد من المصريين في فرنسا يرغبون في السفر إلى مصر، كل واحد بهدف مختلف، ويترددون على السفارة أو يتصلون بها لمعرفة الوقت الذي ستسأنف فيه رحلات الطيران والبواخر إليها. وكانت السفارة قد دبرت رحلات خاصة من باريس ومرسيليا إلى ليبيا، حيث يقوم المصريون بعدها بالذهاب إلى مصر برّا عن طرق ليبيا - مصر؛ وقد

سافر على تلك الرحلات الحالات العاجلة فقط من بين المصريين في فرنسا.

وانتظر محب وشانتال حتى أنتظمت الرحلات البحرية ثانية بين مرسيليا والإسكندرية، فحجزا مكانيهما على واحدة من السفن المتجهة إلى هناك، وفضلا ذلك لأنهما كانا يصطحبان الكثير من المنقولات، ومعظمها كتب، وكذلك سيارة شانتال.

وكانت الرحلة البحرية لهما بمثابة مرحلة انتقال تفصل ما بين زمنهما الباريسي وزمنهما القاهري. ومع انتهاء الزمن الباريسي، كان لزاماً أن تنتهي القصة، احترامًا لعنوانها والتزامًا به !

❁ ❁ ❁

وكان الفراغ من هذا الكتاب

في يوم الاثنين ٣٠ ذي القعدة عام ١٤٣٦ هجرية

الموافق ١٤ سبتمبر / أيلول من عام ٢٠١٥

بعون من الله الرحمن الرحيم

على يد المؤلف الفقير إلى الله تعالى



(+2) 02 27238004 / (+2) 01288890065

www.shams-group.net